فهد العتيق

الملك الجاهلي يتقاعد

رواية ٢٠١٤م

الملك داوود يتقاعد

بعد العودة من السفر ، ذهبت إلى البيت وحيدا ، وأنا مبتهج بمتعة حرية صغيرة ، متعة أن أسرح وأمرح وأفكر وأقرأ وحيدا ، ولو مؤقتا ، وكان في بالي عبارة لذيذة للنفري لا زالت ترن في رأسي ، كأنها أغنية : سدَّ باب قلبك الذي يدخل منه سواي . . لأن قلبك بيتي . قلت في نفسي : أريد قلبها وأريد الحرية ، حتى لو كانت حرية مؤقتة أو مشروطة .

وقفت أمام مرآة حوض المغسلة ، فتحت الحنفية ، غسلت وجهي من غبار سنوات قديمة من القلق والتعب والبهجة والأسئلة والكوابيس ، دفعة واحدة ، في لحظة واحدة ، مشاعر مختلطة ومتناقضة .

كنت أشعر بالدوار المخيف يعود لرأسي مرة أخرى ، يعود ويختفي ، ومعه يعود ذلك الصوت المؤلم لوجه قديم متكرر لا

أعرفه ، صوت صغير ، مثل وخزة ، مثل نبضة مرتبكة ، شيء كأنه يأتي من تلك الأعماق القديمة في روحي ، يتلصص على حياتي ، يهز وجداني ويربك وقتي ، يأتي في لحظة سريعة ويذهب ، يهزني ويصيبني بلحظة رعب صغيرة وسريعة ويمضي ، فأشعر بعده بصعوبة في التنفس .

في مرة سألت داوود عن هذه الحالة ، قال لي : هذا ضميرك ، لكن سعود قال لي : هذا شيطانك .

آخر مرة عادتني هذه الحالة قبل أشهر ، حين عدت إلى البيت في الظهر لأجده كالعادة في انتظاري ، صامتاً بوقفة مهيبة ، وضعت الصحف جانباً ولم أجلس لآكل ، مضيت إلى غرفتي بسرعة ، لم أخلع ملابسي ، ولم أدخل الحمام ، فتحت الجهاز على أغنية واتجهت رأساً إلى السرير ، رميت جسدي ، كما لم أكن معتاداً ، وآثرت ذلك اليوم أن أنام على ظهري ، لأول مرة أرى سقف غرفتي بتركيز ووضوح ، ظللت أتأمله ، ورأيت بوضوح ، خطوط ماء جف منذ زمن تنزل من السقف على الجدران ، ثم نمت ، ويا الله ، أية راحة تكشف عنها هذه الطريقة في النوم ، وفي الصباح سمعت من يقول لي : هكذا ينام الأنبياء ولم أصدقه . إنه هو الذي اتصل بي ذات صباح ، وقال لي : أريدك في أمر مهم ، وحين زرته في بيته لم أجده ، كانت حارتهم غريبة ومليئة بالمستنقعات ، انتظرته في أحد الأركان وفي يدي جريدة ، كان السكان ينظرون في وجهي

باستغراب ، مشيت على الأرصفة المليئة بالبشر ، سألت عنه في مقهى مجاور ، قالوا لي إنه مريض ، اتصلت به ولم يرد ، فعدت مجددا إلى حارتنا ، وقد عقدت العزم على إهمال اتصالاته .

قلت في نفسي إن ذاتي الآن مفككة ومبعثرة فعلا ، بين روحي وشيطاني ، ذاتي تحتاج إلى ترميم أو تنظيم على طريقة شيخنا النفري ، ربما من طريق رؤية فلسفية عالية أتحقق فيها من وجودي ، ولهذا أتذكر الآن تلك الليلة ، عندما قرأ علينا داوود أبو سليمان في غرفته الصغيرة ، مقاطع من روايته : الملك الجاهلي يتقاعد ، كوميديا روائية أو مسرحية من كواليس الجاهلية ، عن آخر ملوك كندة نجد في الجاهلية ، كما قرأ علينا بعض عبارات النفري من كتاب المواقف والمخاطبات ، وهو الكتاب الذي ألفه النفري من أجل تنظيم ذاته المبعثرة كما قال .

الآن يعود الدوار لثوان كأنها دهر ، ويبدأ يخف تدريجيا حين أرفع رأسي وأتنفس بعمق ، أتذكر داوود أبو سليمان ، هو من يشعر دائما بالدوار في رأسه ، ربما بسبب سهر الليل ونوم النهار ، داوود البساطة والهدوء ، هو ملك الجاهلية الجديدة ، ونحن الجاهليون الجدد ، هو ملك الدوخة ، وملك السهر والحلم والأنس والإثم والقراءة .

أغمضت عيني وغسلت وجهي من آثار الدوار ، غسلت

رأسي ، وأنا أهجس بزمننا الذي مضى وانقضى . . كبرنا دفعة واحدة ، أنا ، والأصدقاء ، وكل الناس ، كبرنا وتفرقنا .

كل الناس كبروا أو ماتوا ، ماعدا الذين لانعرفهم ، مازالوا صغارا .

كبروا واختفوا فجأة ، لم أرهم منذ سنوات طويلة ، انشغلوا في حياتهم ومسئولياتهم ، كبروا في الجاهلية الجديدة ، أو ماتوا فيها ، ولم يبق لي سوى ذكريات زمني الذي مضى وانقضى .

قبل حوالي عشر سنوات ، أيام الثانوي والجامعة ، كنت أسكن حارة حيوية جدا غرب الرياض ، حارة على جبل البديعة ، مليئة بالفيلات ذات الأسوار العالية والمساجد والمطاعم الشعبية وبهجة ملاعب كرة القدم الترابية وأعلام الهلال والنصر وموسيقى البيوت والشوارع والسيارات والتشدد الديني والأفراح والأحزان والأمراض والإحباط والكآبة ، كل هذه الاشياء تتجاور جنبا إلى جنب حكايات أسطورية ، كأنها رائحة تتجول في الحارات ، مع مقولات متكررة عن الحياة الفانية وغضب الله ، تعرفت على ياسر وصالح في الحارة وتعمقت العلاقة في مقهى همس العيون ، ثم تعمقت العلاقات مع داوود الذي أدخلنا هو وصديقه سعود في الجاهلية الجديدة .

الآن أحاول تذكر وتأمل ما حدث بهدوء وعمق ، أحاول

قراءة نبض تلك الشوارع البسيطة ، محاولة لذيذة وصغيرة للنفاذ داخل مشاعر تلك الحياة الموجزة ، وما حدث في تلك الفترة من مغامرات جاهلية ، في الأسواق والمقاهي والبراري ، والعمل في مكتبة داوود بعد التخرج ، في انتظار عمل لم يأت بعد ، لكني بعد كل رحلة تأمل ، أعود دائما محملا بالأسئلة التي تنتهي بأسئلة أخرى ، فأضحك على حالي وعلى خيبتي وإحباطي ، أعود محملا بسنوات موجزة ، مرت هكذا سريعة ومجنونة ولاهثة ، ولم أستوعب تماما ما حدث فيها ، وأشعر أنها سرقتني من حياة أخرى كنت أريدها ، حياة فيها خيال يعمل وليس مجرد نزوات تركض .

أتذكر كل الأصدقاء وكل المواقف والحكايات دفعة واحدة ، في الحارة ، المقهى ، بيت داوود ، لازلت أتذكر التفاصيل الصغيرة ، من تلك الحياة المبكرة والسريعة والموجزة التي عشناها معا ، أشعر أنها حدثت بالأمس ، الآن أراهم جميعا ، يمرون في ذهني مثل حلم أو مثل شريط حكايات سينمائي سريع ، قلت في نفسي : ياليت أستطيع أن أجمع كل هذا في فيلم ، لكنها تظل مجرد أحلام صغيرة مثل فقاعات سوف تنفجر وتتحول إلى لا شيء ، أو مثل شهاب ساقط ، أو مثل قمر صناعي قديم ضائع في االفضاء لا يلبث أن ينفجر فوق رؤوسنا ، ونحن نظنه صحناً طائراً قادماً من المجهول أو رسالة من السماء تمضي فوق رؤوسنا نحو حتفها ، عقابا لنا ، ربما هي

أحلامنا التي لا تتحقق كثيرا في عالم فوضوي الهوى ، كسول المزاج ، ضعيف الخيال ، لهذا أشعر بالجانب الكوميدي في كل ما مررت به من صور ومواقف متناقضة وقاسية ومؤلمة .

مضت سنوات على تلك الأيام البعيدة ، كبرنا لكن لازلنا صغارا أمام الذاكرة والنساء وأعمارنا ، مضت السنوات راكضة ، ومضينا نركض خلفها ، تتساقط خلفنا أشياء كثيرة وجميلة لم نكن نفهم معناها ، كنا نحب ونكره دفعة واحدة وننسى دفعة واحدة ، وكانت الموسيقى والبنات ودوري كرة القدم والشعر ، فاكهتنا اليومية ، مضت السنوات وتركت لنا رائحة من عمق تلك اللعبة ، لعبتنا جميعا في حياة مبكرة ، مرتبكة ومتوترة ، بقلوب منكسرة وأرواح كفيفة ، أرواح متوهجة ومحبة وساخطة ، لازالت حتى الآن عبارة مثل (الجاهلية الجديدة) ، ترن في رأسي بعمق ، كانت جوهر التعليقات على أي شيء ، حين أتذكر هذه العبارة ، أشم رائحة أغنيات تلك الفترة ، وأتذكر جلستنا في غرفة داوود أبو سليمان ، نحاول أن نكمل فصول روايته المفتوحة الملك الجاهلي يتقاعد ، وأتذكر سفرنا للبحرين ، نذهب في ليلة واحدة لمشاهدة فيلم جديد ، نسهر ونعود صباح الغد في حياة راكضة ، أسرح مع مباهج تلك الفترة وأحزانها ، وأشعر بألم حين أعرف أنها ذهبت بلا رجعة ، أمضينا معا سنوات غادرتنا مثل برق ، أو مثل فيلم سينمائي ممتع ومؤلم في وقت واحد ، فيلم من أفلام يوسف شاهين التي

تعتمد المقاطع ، وأنت حر في مسألة ترتيبها بلا تقيد بزمنها الحقيقي ، الذاكرة ترتب المشاهد كما تشاء .

دائما يرتسم أمامي وجه داوود ، الملك الجاهلي ، الذي تقاعد مبكرا من الحياة ، تلاشى أو اضمحل مبكرا ، متوسط الطول ومتوسط الوزن وله وجه مدور وسيم جدا ، خصوصا عندما يبتسم تلك الابتسامة الصامتة العذبة والموحية ، صامت وهاديء وصديق للجميع ، يقرأ كثيرا ويكتب قليلا ، لا يدّعي المعرفة أو الثقافة ، لأنه بكل بساطة يسألنا عن أي شيء لا يعرفه أو عن حادثة اجتماعية لم يتابعها ، ونحن نفتخر بأسئلته لنا ، ونجيب أحيانا بمبالغات لكي نثير اهتمامه ، لا تشعر أن لديه ميولاً استحواذية أو أنانية ، يتحدث بثقة ولا يقطع بشيء ، يضع كل الاحتمالات ، ويستمع للجميع باهتمام ويحيط الجميع بروحه الحلوة .

كنت في السابق أكره كلمة تراث ، وأقرأ في الأدب الحديث ، لأنهم يقدمون لنا التراث المغلق بطرق تقليدية ، لكن مع داوود أبو سليمان ، عرفت التراث الحي والحر فأحببته ، أدركت القيمة في بعض حكايات الجاهلية النابضة بالفن وحب الحياة ، وأدركت تحرر وعمق وجمال النفري وابن عربي وحكايات ألف ليلة وليلة وغيرها .

صورة داوود ووجوه أخرى تغيب وتحضر ، تتوهج وتخفت في ذاكرتي ، لكن صورة نادية تحضر في روحي غامضة مثل

ضوء يرتعش ، ضوء يضعف أو يلمع مثل برق ، ثم يختفي مخلفا توابع صغيرة من الذكريات الممتعة والغامضة ، بقي أثر من تلك الحكايات والمواقف والصور في داخلي ، يرفرف مثل علم ، علم مرهق أو شاحب وغير واضح المعالم ، يلمع أحيانا ويخفت أحيانا أخرى .

تلاشى الدوار تدريجيا ، وحل محله صداع خفيف ، رأيت وجوه الأصدقاء تذهب وتعود بصورة ضبابية ، وأحيانا صافية وواضحة ، وهبت رائحة مكان أو رائحة موسيقى تلك الفترة ، رأيتها تعبر أمامي ، رأيت رائحة عميقة لأمكنة وموسيقى زمن مضى ، كأني أريد أن ألمسها ، تعبر أمامي ، رائحة مكثفة وعميقة أشمها فأنتقل لأزمنة وأمكنة قديمة ، رائحة أشعر معها بروح تلك الأمكنة تغمر صدري وقلبي وروحي ، أشعر أنها تحاول استرجاع شيء ضائع من الزمن .

يصاحب هذا أحيانا شعور أن كابوسا يجثم على أنفاسي أو على روحي أو على قواي العقلية ، لا أعرف ، قرأت مرة ، رؤية فلسفية عن العقل والوعي ، ركزت على العلاقة بين العقل والروح وأنهما الجوهر الإلهي المفترض للذات الإنسانية ، لكن نظريات علمية حديثة تعتبر أن العقل موضوع يتعلق بعلم النفس وله صلة بالوعي . فهل التفكير والذاكرة بشكل خاص وحدهما هما اللذان يكونان العقل ، بينما الوظائف الأخرى مثل الحب والكره والفرح تكون شخصية بعيدة من العقل .

حين تعرفت على نادية وتواصلت العلاقات الحميمة بيني وبينها ارتبكت روحيا كما قال لي داوود أبو سليمان ، ونبهني إلى كتاب (ترجمان الأشواق) ، قال لي : إن النقاد يرونه نموذجاً لشاعرية ابن عربي ، تلك الشاعرية الوجدانية الصادقة الصافية التي شرحها بنفسه وسماها : ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق ، فحلقت معه في وقت من الأوقات ، حيث حلق ابن عربي فوق أنواء الحب الآدمي العاصفة بحثا عن الطمأنينة الروحية ، وأتذكر أن جارية جميلة من بنات الروم سمعته يقول قصائده في الهواء الطلق ، فقدمت له رؤية نقدية على مقاطع من قصائده ، كانت غاية في الدقة أبهرت الشاعر .

تحليل الدم

قبل السفر زرت داوود بعد انقطاع طويل ، كنت متلعثما في حياة جديدة ، وكان داوود قد اعتزل العالم وصار كائنا آخر فقد السيطرة على ذاته وأصبح خارج الخدمة مؤقتا ، وصلت إلى بيتهم ، فتح الباب تركي ، دخلت وتوجهت مباشرة إلى اليسار حيث تكون غرفة داوود الخارجية في مدخل الفيلا ، وجدت شقيقته سارة على كرسي بجواره ، سلمت وجلست .

أنظر إلى داوود الصامت ، هاديء جدا وينظر في اللاشيء ، هاهو داوود أمامي وقد اضمحل جسده وصار صغيرا ، قلت في نفسي : هذه نهاية حلم لم يكتمل لداوود أبو سليمان ، لكنها ليست النهاية ، ربما يفيق بعد هذه الحالة ويعود لحكاياته ولأحلامه ولكآباته ولمتاعبه وهواجسه من جديد .

قال لي داوود وهو يصلح جلسته : هلا بك . . تعال يا أخي .

قلت له وأنا أضحك : شكلك اليوم طيب جدا . .

قال داوود بسخرية : جدا . . جدا . . لكن عندي فقر دم قديم . . ودي أحلل دم .

قالت له سارة : يا أخي حللت الدم عشر مرات . . لماذا الشكوك؟

وأنا قلت له : يا عزيزي . . لا تحتاج إلى تحليل . . دمك خفيف وجميل .

قال داوود وكأنه لم يسمعني : تكسر الدم هو مشكلتي يا ناس .

قلت له : بسيطة تذهب معي إلى مستوصف قريب وتحلل الدم .

قال لي : كم المفروض يكون الرقم؟

قلت له : أي رقم؟

قال وهو غاضب : رقم قوة الدم يا أبا جهل . .

قلت له وأنا ضحك : والله لا أعرف ياداوود .

ثم التفت داوود إلى كيس الأدوية الذي بجانبه وتناول حبة بيضاء ، وشرب معها الماء من قارورة صغيرة بجانبه .

سألته عن نوع هذه الأدوية .

قال بغضب صغير : مضاد وحبوب مهدئة يا أخي . .

ثم بسرعة حاول داوود تغيير الموضوع ، وسألني عن نادية .

قالت سارة : هذه الأدوية هي سبب مشاكله . . لو يتركها كان صار بخير .

قلت له : حـــاول أن تتـــرك هذه الأدوية حـــتى لا تصل للإدمان .

قال داوود بصوت خافت وهو لا ينظر إلينا : إن شاء الله .

كـان سـارحـا ينظر في الجـدار الصـامت الـذي أمـامـه ، وفي عـينيـه نوم ، ربما من أثر أنواع الأدوية التي يبـتلعـهـا ، يبـدو أنه لايسمعنا بوضوح الآن ، كان يغمض عينيه ثم يفتحهما ، ليس هذا داوود الذي أعـرفـه للأسف ، لـهـذا كنت أرغب أن ينام ، بدأت أخـاف من داوود الذي أحـبـبت ، أخـاف أن يفـيق أو ينهض أو يزعجنا بشكوكه .

أتذكر داوود ، دائما كان يحكي لنا بمتعة وإثارة عن الجاهلية الأولى والجاهلية الثانية ، يقول إن جاهلية نجد الأولى انتهت مع مملكة كندة الملوك ، ويذهب بعيدا في سرد تفاصيل ملوكها وقبائلها وشعرائها وشاعراتها وحروبها وحكاياتها وأحداثها ، وبالذات حكاية مقتل ملك العرب في الجاهلية عمرو بن هند على يد عـمـرو بن كلثوم ، وأذكـر أنني تلك الفـترة أخـرجت الحكاية من جوجل واستمتعت بتفاصيلها وقصيدة عمرو بن كلثوم المشهورة عنها . داوود الذي تتبع معنا أصل كلمة (عرب) المختلف عليـهـا ، وقـرأ علينا حكايات ابن عـربي وجـلال الدين الرومي وحي بن يقظان وألف ليلة وليلة وقـصـة ابن زيدون مع ولادة بنت المستكفي ، وكـان يكرر علينا أهميـة التـاريخ لـفـهم واقعنا الحاضر .

أسـرح في كل مـا كـان يردده : كـانوا في الجـاهليـة الأولى يتحاربون على بئر الماء أو على شرف وكرامة امرأة أو على ناقة ، لكن الآن ، في الجاهلية الجديدة ، يتقاتلون على الكرسي وعلى المنصب ، وفي النهاية هم جميعا في الجاهليتين ، يتقاتلون على المال والنساء والأراضي ، أو ينتحرون بأحزمة ناسفة .

كنت أسأله عن الجاهلية الثانية .

يقول لي بسرعة وهو يضحك : أنت ملكها .

ثم يكمل : نحن نعيشها الآن يا أبا جهل .

قـال لـه مـرة صـديقنا سـعود : أنت ياداوود ملك الجـاهليـة الجديدة .

يرد داوود وهو يضـحك : أنا لا أنكر جـاهليـتي ، لكن أنتم تنكرون جاهليتكم .

ربما القصة الغامضة التي لا تفارق خيالي ، حين ظل داوود نائمـا في غرفـته لعـدة أيام ، هذه كـانت بداية انحـداره نفسـيا ومعنويا وجسـديا ، لابد أن خللا كـبيرا فـيه ، وهو لا يعـرف ما الذي جعله يتوقف عن مسيرته الاعتيادية هكذا ، عند انبطاحة طويلة ، وقـبل ذلك ليقـول لنفسـه في ذلك المسـاء الحزين : أريد أن أنام فـقط ، وهو يعلم أنه أفـاق للتـو ، وربما الذي حـّركـه تلك اللحظة أكـبر من أن يعيـده كمـا كـان قـبل الآن ، تلك الأزمنة الغـابرة التي ركض فـيهـا أبوه ، وركض هو من بعـده ، ولكن لا يعرفان إلى أين ، تملؤه رائحة الغرفة العالقة منذ زمن بالوسادة ،

لم يكن يشعر بأي شيء ، وكان جسده هادئا كما لو أنه يريد أن يلبث هكذا حتى الموت ، ولم يكن أكثر من هذا الشعور المدمر بالخوف وفقدان الحياة ، إلا انبطاحة سهلة مدت جسده ببذخ على السرير بينما ترتفع من رأسه أصوات خافتة تئن متوازية مع أزيز غامض يدور في جوف رأسه ، حتى ارتفعت رائحة الحزن والغضب في الحارة وأخذت تفوح وتكسو الجدران بأثرها الرمادي الغامض ، فقال الناس أشياء كثيرة عن الحياة وغضب الله .

انقطع تفكيري فجأة وأخذ طريقا آخر ، طريق سؤال غامض ، وأنا أمام داوود الراقد ، أردد في ذهني : هل سنفقد داوود ، لماذا لم يتزوج ، ثم فجأة انقطع التفكير بسرعة ، وصرت أفكر في حالي ، هل دمرني الملك داوود بهذه الحياة الجاهلية ، أم أنه قدري ، هل كان بإمكاني أن أسلك طريقا آخر بعيدا من داوود ، أين ، ومع من ، كيف وأنا كنت أرى قدمي غارقتين في طين هذا الحي منذ الولادة وحتى اليوم .

كان ياما كان . . في جديد الزمان . . كان فيه ملك جاهلي عظيم الشأن . . اسمه داوود أبو سليمان ، ربما هذه مقدمة أول محاولة كتابة لتسجيل انطباعاتي تجاه داوود أبو سليمان .

تربينا معا تقريبا ، هو أكبر مني بعامين ، وشقيقته سارة أكبر مني بعام ، وشقيقه تركي أصغر مني بعام واحد تقريبا ، كل شيء ينتهي بتقريبا ، ليس في حياتنا شيء مؤكد ، كل

شيء غير مؤكد ، ماعدا حقيقة أحلام مؤقتة نعرفها وخيال متوقف عن العمل ، لكن داوود لا يعترف بمرضه ، يسهر ويدخن ويشرب ويأكل قليلا ، ينقطع عن المكتبة ويعيش حياة الجاهلية ، حياة الفوضى المُرتبة .

أعود الآن بعد أن سرحت طويلا ، إلى غرفة داوود ، وأتأمل رقدته الموحية ، ليست رقدة مريض يتألم ، لكنها أشبه برقدة هائم أو تائه يبحث عن درب واضح من دروب متعددة أمامه ، وكل درب يفضي إلى دروب فرعية كثيرة ، أتأمله من الكرسي الذي أجلس عليه وأتذكر حكاياته عن حياة ملوك كندة في الجاهلية ، قصص طويلة مليئة بالحوارات المضحكة .

ألتفت بحذر إلى خالتي سارة ، أراها جميلة ومسترخية على الكرسي ، وغارقة في هواجسها ، لم أر سارة بهذا الشكل أبدا ، سارةُ المرحِ والحيوية والضحك ، هي في عمري تقريبا لكنها تميل إلى الطول والنحافة ، جميلة وحيوية وذكية ، حصلت على بكالوريوس إدارة وتعمل في مدرسة أهلية .

في إحدى المرات طلبت خالتي سارة من داوود أن يهتم بنفسه وبالمكتبة وحياته ، لكن داوود كان يسخر من مطالب سارة ، قال لها وهو يضحك : هذا البلد ورشة بزنس وليس بلد ثقافة ، ضحكت سارة وأكملت : انشر قراءاتك عن الجاهلية في الصحف ، قال لها : هذه صحف حكومية محافظة لا تنشر عن السياسة والنساء ودوارق الخمر ، قالت له وهي تبتسم قاصدة

استفزازه : اذهب إلى النادي الأدبي ، قال لها : هذا مسجد أو إدارة رسمية وليس نادياً ، كل شيء فيه بحساب ، الضحك بحساب والكلام بحساب والأدب والفن أيضا بحساب ، المقاهي أجمل وأفضل . . ثم يضحك بسخرية .

في هذه اللحظة الغارقة في التأمل والتذكر ، انتبهت لداوود يفيق ويقول لي :

أنت . . تعال .

ثم رأيته على السرير يبتسم ابتسامة جميلة لكنها باردة ومريضة .

أشفقت عليه وأنا على وشك أن أضحك من شكله . .

وقفت ، تركت الكرسي وتقدمت بخطوات بطيئة إلى سريره ، جلست على طرف السرير ، نظر في وجهي بابتسامة ضائعة المعنى .

قال لي بصوت مبحوح : تقدر تجيب لي حبوب من القاهرة .

لاحظت بألم أنه لم يطلب إحضار كتب كالعادة . .

قلت له : ربما غير موجودة في صيدليات القاهرة .

قال : يا أخي أحس دقات قلبي سريعة .

أخافني كلامه .

رفع جسده قليلا ومال برأسه ، نظر في وجهي بتركيز كأنه يريد أن يعرفني .

سألني : وأنت كيف حالك .

قلت له : الحمد لله ، المهم أنت ياداوود .

قال : أنا طيب . . تعال .

قلت له : أنت يا داوود انقطعت عن مقهى همس العيون فتبعثر الأصدقاء .

قال بتعب : ظروف يا أخي .

مال برأسه ، أغمض عينيه ، ونام ، ربما .

وأنا ودعت سارة وغادرت الغرفة متوجها للبيت ، كنت أفكر بألم في أشياء ومشاهد كثيرة تعبر في رأسي مثل شريط سينمائي مؤلم وممتع في وقت واحد .

أسئلة الجاهلية الجديدة

في عصر يوم أربعاء قديم ، أيام الجامعة ، زرت داوود في بيتهم ، أوقفت سيارتي خلف سيارة الملك داوود مباشرة ، فتحت لي الباب خالتي سارة ، قالت لي وهي تضحك : تفضل في عزبة الملك داوود أبو سليمان ، وأشارت إلى باب الملحق المفتوح ، ثم اعتذرت لي لأنها ستدخل البيت بسبب وجود شقيقاتها وصديقاتها في الداخل .

دخلت بيتهم فاستقبلتني كالعادة ، في ساحة البيت ، ثلاث نخلات ، مقابل مدخل الفيلا ، وقبل النخل إلى اليسار غرفة داوود المستطيلة ، التي هي ملحق خارج البيت مع حمام صغير ، دخلت الغرفة المقسومة إلى قسمين ، إلى اليمين مكتب وسرير داوود ، وإلى اليسار الجلسة العربية بكل معداتها ، وجدت تركي يرتب الغرفة ، لأول مرة أرى غرفة داوود نظيفة بهذا الشكل ، كان داوود يمنع الجميع من دخول هذا الصندوق الغامض في غيابه ، دخلت الملحق متحمسا

لكن لم أجد داوود ، وجدت التلفزيون المفتوح والقناة الرياضية تبث مباراة من الدوري في كرة القدم ، وتركي شقيق داوود الأصغر منه كان ينهي تنظيف الغرفة ، وضع تركي صينية القهوة أمامي وقال تفضل ، ثم رقد هناك قرب الشاشة ، يتفرج بحماسة على المباراة ، لكن لا أثر لخالي داوود ، قلت لتركي أين الملك الجاهلي ياولدي الجميل ، قال وهو يضحك : خرج ولم يعد يا ابني ، قلت وأنا أستلقي على الكنبة الأرضية خلف تركي : كيف خرج ولم يعد ؟ ، قال تركي : ذهب إلى مطعم الرز البخاري ولم يعد ، ورحت أفكر أين ذهب الملك ، اتصلت به في الصباح وكان يبدو في حالة جميلة ، حدثني عن المكتبة وعن كتب جديدة يريد أن يشتريها ، ثم انقطع التفكير فجأة حين شعرت بصداع خفيف ، وبدأت أفكر في أحوالي المبعثرة التي لا تسر ، لكني غفوت قليلا ، ثم صحوت على صوت صينية الشاي القادمة من مجلس سارة ، شربت الشاي وأنا أتفرج على غرفة داوود العجيبة وأفكر في أحداث كثيرة ، سهرنا فيها كثيرا وحفظت ذاكرتها أسرارنا ، عزف لنا فيها داوود محاولاته الفاشلة في العود ، أكملنا فيها كتابة حكاية الملك الجاهلي بعد أن بدأها داوود ، وحدثنا طويلا بروحه الكوميدية اللذيذة عن الجاهلية الأولى والجاهلية الجديدة .

جدران هذا المكان الرطب بيضاء تميل إلى اللون الرمادي بسبب الغبار المتراكم ، ومن السقف ، في زوايا الجدران ، تنزل

خطوط بنية اللون لطين جف منذ زمن ، خطوط طينية دقيقة وطويلة ، من آثار مطر قديم تسرب من فتحات صغيرة في أركان السقف ، كما تلاحظ مسامير قديمة في منتصف الجدار الملاصق لسور الجيران ، تحتها تلاحظ أيضا ثقوباً سوداء من آثار مسامير منتزعة من أماكنها ، وفي الحائط المواجه له ، ينام مكيف صحراوي قديم لايعمل ، كان داوود قد قرر استبداله بمكيف اسبليت ولم يفعل .

المكان عبارة عن غرفة أو مجلس ملحق في حوش فيلا قديمة لموظف قديم ، غادر إلى القرية مسقط رأسه ، وترك في البيت زوجته وثلاث بنات وولدين ، فيلا معتمة في شارع صغير وسط حي البديعة جنوب غرب مدينة الرياض ، الحي الذي نهض قبل نهاية القرن الماضي بعشرين عاما تقريبا ، هنا ولد ونشأ داوود أبو سليمان ، كان البيت عبارة عن فيلا قديمة ومهترئة من دور ونصف ، بناها والده سليمان بن داوود الوشمي النجدي عام ١٩٨٠م ، يتوسط حوش الفيلا ثلاث نخلات عملاقة يأكلون منها التمر منذ ثلاثين عاما ، في الدور الأرضي مجالس وصالة عائلية كبيرة ، وفي الدور الأول غرفة لوالده ووالدته وغرفة لشقيقته ، وغرفة له يشاركه فيها شقيقه الأصغر تركي .

الملحق مفروش بقطعة سجاد مزخرفة ، في الزواية اليمنى بعد المدخل ، مكتب خشبي عليه كتب وجهاز كمبيوتر ، وخلف المكتب كرسي دوار ، وفي الركن خلف المكتب سوف تجد بابا

صغيرا يصلك بحمام صغير ، وحين تخرج من هذه الغرفة من خلال بابها الصغير سيكون على يمينك الباب الحديدي المؤدي للشارع ، وعلى يسارك الباب الحديدي المؤدي للفيلا ، وفي المقابل ساحة واسعة تتوسطها ثلاث نخلات مثمرة .

سرير داوود هناك إلى اليمين بجوار مكتب صغير عليه كتب وأوراق وجهاز كمبيوتر ، وإلى اليسار الجلسة الأرضية ، وفي الركن إلى جانبها غلاية ماء وصينية بلون بني فيها كرتون شاي وكرتون سكر ، وكاسات ورق وملاعق صغيرة وبجانبها كرتون علب صغيرة من الماء ، وعلى الجدار لوحة خشب كبيرة عليها صورة داوود واقفا أمام سيارته الكابرس السوداء .

في هذه الغرفة الخارجية أو الملحق صار يسكن داوود أبو سليمان ، ترك غرفته في الدور الأول من فيلا والده وسكن هنا منذ عامين تقريبا ، هنا عرفت روح داوود أبو سليمان الحقيقية ، تعرفت على حكايته وأحلامه وأغنياته المفضلة وكتبه المفضلة .

قام داوود بتحويل الملحق في مدخل الفيلا إلى غرفة جميلة ، وضع فيها كتبه ، وعلى سطحها وضع الدش ليتابع قنوات الفضاء ، وسط هذه الغرفة الصغيرة ، يستلقي دائما داوود أبو سليمان على ظهره ، ينظر في سقف هذا الملحق ، ينام متأملا حاله ، ينام يقظا بكثير من الهدوء والعمق والشجن والحلم والألم ، بعد أن كتب بقلمه الرصاص على أوراق مبعثرة فصولا من رواية (الملك الجاهلي يتقاعد) ، وبعد أن قرأ فترات

متواصلة رقعا صفراء لابن الأثير عن حياة الجاهلية ، تلك الحياة الغامضة ، وكثيرة المصادر ومتعددة الروايات للحكاية الواحدة ، ينام داوود بعيون مفتوحة وهو يشعر في داخله برغبة في التلاشي وسط حياة جاهلية .

كان داوود أبو سليمان يقرأ في حالات الملل والتعب وغالبا في الليل ، بينما أختلف معه في هذا الجانب لأني أحب القراءة في أوقات الصفاء والبهجة ، وفي حال الملل والتعب أهرب للمقهى ، تعلمت من داوود نقد الذات بصراحة لتطويرها ، وأيضا القراءة برؤية انطباعية ، كان يكرر : انتقد ذاتك لتطوير تجاربك ، ولهذا كتبت ملاحظات سريعة على روايته (الملك الجاهلي يتقاعد) وحين سلمتها له ، قال لي : أمامك الجهاز تستطيع التعديل على النص كما تشاء .

ترك داوود في غرفته داخل البيت دولابا مكشوفا على شكل مكتبة ، يضم صفحات قديمة من صحف يحتفظ بها رياضية وفنية وأدبية ، وكتب (ألف ليلة وليلة) و(أيام العرب قبل الإسلام) ، و(المواقف والمخاطبات) للنفري ، و(ترجمان الأشواق) لإبن عربي ، وكتب لغازي القصيبي ونجيب محفوظ وإبراهيم أصلان ومحمود درويش وكافكا وبروست ، بالإضافة إلى كتاب أصفر قديم هو عبارة عن قراءات في قصائد مشهورة من الشعر الجاهلي لامرىء القيس وعمرو بن كلثوم وعمرو بن هند والمهلهل وغيرهم من شعراء الجاهلية المعروفين ، وأيضا

كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني وكتاب ابن الأثير عن الجاهلية وملوكها وأحداثها : (مقتل كليب وحرب البسوس) وغيرها من القصص ، كل هذه الكتب اشتراها خلال رحلتنا للقاهرة قبل عامين ربما .

درس داوود في مدرسة البديعة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، ثم درس التاريخ في الجامعة ، ويعمل في المكتبة التي فتحها والده ، مكتبة قرطاسية تشمل خدمة الطالب ، استقدموا للعمل بها عاملاً أسيوياً ، تقع في رأس شارعهم ، يزودها أحيانا داوود بكتب وأفلام معروفة منوعة ، لكنه لا يسلم من هجمات هيئة النهي عن المنكر والثقافة والفن ، للتفتيش على الكتب والأفلام .

كان بيتهم قريباً من بيتنا ، ولهذا كنت أزوره أحيانا في غرفة الملحق ، وكان في بدايات حياته ، محبا للحياة وللفنون بأنواعها ، كان حيويا ومرحا ويميل إلى الاطلاع والقراءة في الشؤون الرياضية والفنية والأدبية ، كل يوم يطالع الصحف الالكترونية العربية بحب ومتعة ، ومتابعة كل صغيرة وكبيرة في كل ما يخص الأحداث الاجتماعية اليومية وكرة القدم وشؤون الفن والغناء ومتابعة الأفلام العربية والأجنبية ، لكنه بعد تخرجه في الجامعة ، تغير كثيرا ، أهمل المكتبة تدريجيا وغرق في دوامات مشاغل سخيفة ، مات معنويا قبل أن يموت جسده المريض بمضادات الكآبة ، وروحه الحزينة بالكبت

والملل ، كل شوارع حي البديعة جنوب غرب الرياض ، الكبيرة والصغيرة ، تعرف خطوات داوود ، حفظ كل أركان الشوارع عن ظهر قلب ، وحفظ أسماء المساجد والمحلات والمخابز والمطاعم . تمر سنوات عمرنا في رأسي مثل شريط سينمائي سريع ، أضحك بألم حين أرى أنها مضت هكذا ، سنوات من الأسئلة والأحلام ، انقضى أغلبها في مشاهدة قنوات الفضاء ، ومباريات كرة القدم ، وسماع الأغاني التجارية الراقصة ، ومشاحنات عائلية ، ومتابعة لحروب المنطقة والإرهاب .

بدأ داوود يعالج متاعبه بتعلم عزف العود في هذه الغرفة القصية في حوش البيت ، صحبة أصدقاء من كل مكان ، تدخل هذه الغرفة المرتبة فتجد صحف اليوم ومجلات منوعة وكتاب قواعد اللغة الإنجليزية وجهاز الكمبيوتر ، وفي أحد الأركان وضع طاولة خشبية تجد عليها غلاية ماء وشاياً وسكراً وكاسات زجاجية صغيرة للضيوف ، وبجوار الطاولة ثلاجة صغيرة ، لكنه بعد مضي عدة أشهر ترك العود وهجر الأصدقاء ، لم يكن الجو مناسبا لداوود ، ثم إن شلة من أصدقائه وأصدقاء أصدقائه جعلوا من مجلسه مأوى لهم كل ليلة ، وهذا ما ضايق داوود وضايق والده ، وضايق الجيران أيضا ، فتفرق الجمع سريعا .

كشف لي داوود مرة ، أن أحد أصدقاء ابن عمه سعود ، سرق من غرفته خمسة آلآف ريال ، كان يضعها داخل إبريق

شاي قديم على أحد رفوف الغرفة ، وهذا المبلغ من دخل المكتبة يجمعه لإيداعه في البنك أو لدفع إيجار المحل ، وعرفت في ما بعد أنها كانت سهرة حمراء ، وأن هذا الصديق الجديد بات معه حتى الصباح في هذا الملحق ، وحين استيقظ وجد داوود نائما ، فتش غرفته وسرق المبلغ من داخل الإبريق ، وسمعت أن هذا الصديق اللص كان عاطلا عن العمل وعنده ظروف عائلية صعبة .

إضافة إلى ما لاحظه داوود مؤخرا على مزاجه وميوله نحو حكايات التاريخ ، من هنا بدأ في قراءة تاريخ الشعوب ، تاريخ العرب تحديدا منذ الجاهلية حتى عصرنا الحديث ، ومحاولة معرفة من أين أتت كلمة عرب ، درس الديانات وقرأ دخول الإسلام وقرأ القرآن الكريم وأحبه ، وبدأ يرتل قصص القران مثل سورة يوسف ومريم ، متتبعا طريقة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، كان لداوود صوت شجي فيه شجن ، ويذكر الأصدقاء ، أنه ذات مساء بعد أن شرب كأسا ، استمر في تلاوة القرآن لمدة عشر دقائق بصوت فائق الجمال ، لكن داوود كذب هذه المعلومة .

وقعت بعض الأحداث المهمة التي جعلت داوود يترك حجرته في الفيلا تدريجيا ، لأنه لم يقرر فجأة ترك غرفته وهجرة البيت والسكن في الملحق الخارجي ، الذي كان مخصصا لاستقبال الأصدقاء ، وربما من أهم أسباب اختصار

حيـاته في ملحق فيـلا والده ، وتخليـه التـدريجي عن حيـاته المنظمـة في غـرفتـه المسـتقلة ، حـالات إحبـاط وكـآبة داهمتـه تدريجيا ، عـاش في بداية حياته مرتبا ومنظما وطموحا وحالما ، وشيئا فشيئا صار مثل القوم ، قليل الاهتمام وقليل الترتيب وفـوضـوي الحـالـة ، وكـانـت البـدايـة في هذا التـحـول عـفـوية وبسـيطة ، إذ صـار يتـعـود الجلوس في الملحق طوال فـتـرة اجـازة نهاية الأسبوع ، ثم بدأ التحول التدريجي شيئا فشيئا ، حتى صار هذا الملحق بيته الصغير ، بعد أن رأى الفوضى تدب في كل شيء حـوله ، في البـيـت وخـارج البـيـت ، أضف إلى ذلك أسـئلة والدته القلقـة كلمـا قـابلتـه داخل البـيـت ، ثم زواج شـقـيـقـتـيـه ، وبقيت والدته ووالده وأختـه سارة وتركي في هذا البيت الواسع القديم ، لكن البيت لايخلو من زيارات شقيقتيه وأولادهن دائما ، وفي نهاية الأسبوع يبيتون عندهم ، لهذا تحول البيت في نهـاية الأمـر إلى ملعب لأطفـالهـن ، وهذا مـا أسـعـد الجميع ، وبث حيوية في أرجاء البيت .

بعـد تلك الأحـداث التي تتـالت على مـدى ثلاثة أعـوام تقريبا ، لاحظ داوود أنه أصبح أكثر ميلا لاختصار الأمور وأكثر ميـلا للكسـل ، بحيث عندما يدخل البيت قـادما من المكتبـة ، أصبح لايتجه مـباشـرة إلى البـاب الداخلي للفيـلا ومن ثم إلى غرفـته بالـدور الثاني ، صـار يختـصر الأمـر ويتجـه مـباشـرة إلى الملحق الموجود إلى اليسار بعد الدخول مباشرة ، مقابل ثلاث

نخلات تتوسط الحوش .

يفتح الباب ، يدخل ، يفتح المكيف ، يعلق ثوبه على أي مسمار فارغ ، يرمي غترته على سطح المكتب ، يلبس القميص والشورت ، يفتح التلفزيون أو يقرأ الجريدة أو ينام ، لأنه أيضا دخل في عادة جديدة وهي الغداء بعد الخروج من المحل مباشرة في مطعم الرز البخاري المجاور لبيتهم ، وغالبا ما يتناول الغداء في العصر بعد إفطار صغير ومتأخر ، لأنه ليس من هواة المبالغة في الأكل ، وخصوصا فترة الظهر ، وهكذا اختصر موضوع الأكل فلم يعد هاجسا يزعجه ، هنا بدأ يشعر داوود شيئا فشيئا أنه على وشك أن يصبح إنسانا حرا ومستقلا .

بعد انتهاء المباراة فتح لي تركي باب حكايات طويلة ، كان يتحدث بحماسة عن حسابه في تويتر وعن الذين يتواصل معهم من الأقرباء والأصدقاء ومنهم ياسر ، ثم تحول تركي إلى حوادث السيارات والسرقات في مدينة الرياض ، وبالأخص تلك التي تقع فجر الجمعة للشباب ، يتكلم بحماسة وسرعة وأنا مستمتع بثرثراته الجميلة ، حين توقف تركي عن الحكي ، سألني عن نادية ، قلت له : بصراحة نادية على وشك أن تكون خارج الخدمة ، قال : خير ، قلت : دائما متضايقة أو تبكي بلا سبب ، قال : أعوذ بالله . . يبدو أن فيروس الكآبة انتشر في البلد . طلبت من تركي مصاحبتي للمقهى القريب فاعتذر ، ودعته وخرجت من بيتهم .

آثام صغيرة لا تضر

ذهبت أمشي على قدمي للمقهى ، مررت بتقاطع شارع المدينة المنورة مع شارع عائشة بنت أبي بكر في حي البديعة ، باتجاه سوق الرياض الدولي ، في هذه الفترة كنت مشغولا مع نادية ، أفكر كيف ستنتهي الأمور بيني وبينها ، وفي هذه اللحظة عاد لروحي ذلك الصوت الخفيف والغامض مجهول المصدر ، صوت مثل نبضة أو مثل وخزة ، صوت أشعر أنه يأتي من تلك الأعماق القديمة في روحي ، يهز وجداني ، يأتي في لحظة سريعة ، يهزني ويصيبني بلحظة رعب سريعة ويمضي ، فأشعر بعده بصعوبة في التنفس ، ظللت أمشي وأنا أنظر إلى الأرض الرطبة من أثر مطر أمس ، وأردد بصوت خافت : ضميرك . . شيطانك . . ضميرك . . شيطانك ، حتى مررت بجوار مطعم الرز البخاري ، فانشرحت روحي قليلا ، هذا المطعم صديقنا ولنا فيه جلسات وذكريات ، في أوقات سعيدة وأوقات كئيبة أعرفها ، اجتمعنا عدة مرات في هذا المطعم ، لكنه مطعم

داوود المفضل ، وأذكر أن داوود سألني مرة ، ونحن نخرج من هذا المطعم ، هل أنت سعيد ، وحين حاولت الإجابة ، قاطعني بالقول : أنا أسأل نفسي يا وليد ، ثم صمت طويلا ينظر في الأرض وهو يمشي ، ويتأمل في أشياء ، ربما أعرف ما هي .

الآن أشعر أن داوود أبو سليمان حين يخرج من هذا المطعم ، منتصف عصر كل يوم ، يبدو مثل ملك حقيقي ، ربما لأنه لا يأكل في الغالب سوى وجبة واحدة في اليوم ، ويرتكب هذا الفعل الجميل في هذا المطعم بالذات ، حين يأكل صحن الرز وصحن الباميا ثم يشرب علبة السفن أب ، يكون بهذا قد ارتكب أهم وأجمل الأفعال ، يكون سعيدا فيتذكر والديه وإخوانه وأخواته ، يتذكرهم بشوق وحب ، لكن حين يكون في مزاج سيء وفي حال التعب فإنه لا يتذكر أحدا ، يصبح منشغلا بحاله ، حالة القلق والحزن والألم التي تعصف بكيانه ووقته في الكثير من الأحيان ، لكنه اليوم سعيد ، هذا ما أظنه أو ربما هذا ما يشعر به هو ، وقد يكون شعورا عابرا أو مخادعا ، لكن ما علاقة هذا بنوبة رعب الروح الصغيرة التي تأتي وتروح فجأة ، كأنها تختلط مع ذلك الشعور الغامض بالسعادة أحيانا ، فتكون نتيجة هذا الاختلاط مشاعر ليست صريحة لكنها ليست مطمئنة ، واصلت المشي مطمئنا ، ثم سألت نفسي : هل أنا سعيد ، وفي محاولة للفهم ، شعرت أنني أحاول الاقتراب أو الالتصاق بهذه الكلمة ، أقترب منها أكثر فأراها تبتعد عني ،

بدت لي كلمة واسعة جدا ، من الصعب القبض عليها هكذا بسهولة ، وجدت أنها صعبة ومعقدة ، كلمة مغلقة تماما على ذاتها ، والتحاور معها ضعيف ، هي كلمة مؤقتة ، أو معنى مؤقت ، فدلالتها الوحيدة تكمن في مسماها ، أي أنها فقيرة حين تفكر بها كلمة مجردة ، هكذا فكرت ، بالتالي ليس هناك مجال أن أطرح حولها أسئلة ذات فائدة ، فإذا كنت أواجه ظروفا كثيرة في حياتي لم أحسب لها حسابا ، فإن عبارة إنسان سعيد تصبح مؤقتة لحين زوال الظروف ، أي من الصعب أن نطلقها على إنسان ما ، يواجه الكثير من الظروف في تفاصيل حياته اليومية ، مهما كانت درجة رضاه عن واقعه ، وكل محاولة للقول إن هذا السبب المحدد هو أهم سبب لسعادة الإنسان سوف تكون محاولة غير واقعية ، ورأيت أن البحث عن أسباب السعادة ، ليس بابا مفتوحا ، لأن أسباب السعادة التي قد (نطلقها) ، قد تكون في وقت من الأوقات أسبابا للتعاسة ، والذين حققوا كامل أحلامهم في حياتهم لم يوجدوا على هذه الأرض بعد ، ورحت أسرح في هذا الأمر الذي يبدو لي عظيما ، بسبب نوبات الكآبة التي صارت مثل فيروس يملأ الجو ، قلت في نفسي : صحيح يحتاج الإنسان إلى البحث الدائم عن بديل لواقعه الذي لا يشعر تجاهه بكامل الرضا ، لكن الواقع الجديد أو البديل قد يظل واقعا غير مُرض ، لهذا يفترض في الإنسان أن لا يهتم كثيرا ولا يقلق ولا يدقق ، وهو

ما فعلته فورا ، فهربت من هذا الموضوع ودخلت منطقة أخرى في الذاكرة ، منطقة آمنة وهادئة ، وسرحت في تفكير هادىء ، نزلت من رصـــيف المطعم وواصلت المشي ، وطيف أمي في مـخـيلتي ، أشـعـر بالحـزن على فـراقـهـا أحـيـانا ، حين أتذكـر الأحـداث والأسـفـار والأحـزان والأفراح التي تقاسـمنا أوقـاتهـا معها ، لكن أيضا ، أشعر أحيانا أنني تحررت قليلا بعد موتها ، ولهذا يدهمني خوف من مجرد الإحساس براحتي بعد وفاتها ، تدهمني وخـزة الرعب في روحي لثـوان ثم تذهب ، قلت وأنا أتجه للشارع الرئيسي الكبير نحو المقهى : تحررت من هَمّ مرضِها وهي ارتاحت ، ثم واصلت أحـاول طمـأنة نفـسي : لكن لماذا الكذب فأنا أشعر بالتحرر فعلا ، وأحيانا بالراحة وهذا شعور عابر ، لكن نوبة الرعب الصغـيرة ظلت تطاردني بخـفـة ، وهنا نشط ذهني وبدأت أفكر في بعض الأقـارب والأصـدقـاء الذين أنهوا دراستهم وانقطعت عنهم ، ماذا حققوا ، هل عمروا بيوتا ، هل تزوجوا ، هل أنجبوا ، ثم أفكر بقلق في حياتي التي لم تحقق شـيئـا كثـيـرا رغم جهـدي الكبـيـر الذي أبذله في المكتبـة ، ثم يعاودني الشعور أن حياتي مستقيمة وملتزمة ومحتشمة بلا داع ، بدأت أبتهج حين شعرت أنني قد أكون على وشك حياة جديدة ، أريد أن تكون حيوية ومختلفة ورومانسية ، فكرت في أشياء نسيتها منذ زمن طويل ، أشياء لم أعرفها جيدا ، فكرت لماذا لا أداوي همومي ووحـدتي بالحب واللعب والسـهـر ، لماذا

أقصي نفسي عن الحياة ، لكن نوبة الرعب الصغيرة عاودتني فأسرعت الخطو ، نوبة أعرفها تأتي أحيانا كأنها جرس إنذار ، هدأت النوبة فهدأ خطوي ، وعاد طيف سعادة غير صريحة ، في الوقت الذي لاحظت أمامي طفلا يلاحق قطة صغيرة على الرصيف ، توقف الطفل يصلح حذاءه ،لكن الغريب أن القطة توقفت أمامه أيضا غير بعيد عنه والتفتت تنظر إلى الطفل ، الذي أصلح حذاءه وعاود الركض وراءها ، فعادت للهرب منه ، ضحكت للمنظر كأنه مشهد من فيلم ، فقد اندهشت لتوقف القطة كأنها تنتظر من الطفل أن يواصل ملاحقتها . واصلت المشي على الرصيف الطويل ، وأنا أظن باعتزاز أن جرس إنذاري الداخلي ربما هو ميزة خاصة ، خصلة عظيمة غير موجودة عند كثير من البشر ، رغم ما تسببه من قلق ، لأن نوبة الرعب الصغيرة التي تدهمني أحيانا ، تأتي حين أهمل أو أؤجل شيئا مهما في حياتي ، أو أؤذي أحدا أو أنسى شيئا ، أو حين أشعر أن شيئا ما يهدد حياتي ،لهذا أعتقد في بعض الأحيان أنني أتميز بهذا الجهاز الحساس والطبيعي في رأسي ، أو ربما في قلبي ، لا أعرف مكانه على وجه التحديد ،ليس من المهم أن أعرف مكانه ، لكنني أعرف تأثيره القوي على روحي ، إذ تصيبها الرهبة والارتباك بدون سبب ، كما أعرف نوع ألمي المباغت في الروح ، مثل هزة كهرباء حين تلسع أصابع اليد ، أتذكر أن هذه النوبة تطاول روحي حين كنت مراهقا عندما

أرتكب إثماً ما ، لكن حين كبرت قليلا وتوقفت عن ارتكاب تلك الآثام الصغيرة توقفت تلك النوبات ، وصارت تعود لأسباب أخرى ، ولأنني وصلت مرحلة من التجربة ، فقد تجاوزت فكرة أن تأتيني النوبة بسبب الآثام ، حيث أحاول التحرر الآن من عقدة التزمت والآداب المصطنعة ، لأدخل حياة جديدة أكثر إشراقا ومرحا وحبا وآثاما صغيرة لاتضر .

مقهى همس العيون

وصلت مقهى همس العيون ، أخذت طاولة في الحديقة المجاورة للرصيف ، جلست على الكرسي ، لكن فجأة لمحت داوود أبو سليمان بدون سيارته ، يعبر الشارع الكبير دون أن يلتفت للمقهى الذي نجلس فيه عادة ، كان يحمل كيسا أزرق وبعض الصحف ، ويبدو أنه متجه إلى بيتهم من خلال شارع الدائرة الذي يقود إلى فيلا والده داخل الحي ، لكن لأول مرة أرى داوود يعبر هذا الشارع الكبير المزدحم ، ولأول مرة لا يلتفت للمقهى ولا يرد على اتصالاتي ، قلت لصديقنا يوسف صاحب المقهى وكان يرتب الطاولات أمامي : هذا داوود يا يوسف ؟ رفع يوسف رأسه ونظر بالاتجاه الذي أشرت إليه ، قال يوسف : صحيح هذا خالك داوود ، وأنا ظللت أتابع داوود مندهشا وهو يغيب عني خلف السيارات ، جلس معي يوسف ، سألته عن الشاب ناصر الذي يساعده في المقهى ، قال لي يوسف : تعرفت عليه في المقهى كان يحضر أحيانا لمشاهدة

المباريات ، وعرفت أنهم يسكنون في الحارة خلف المحل ، توفي والده العام الماضي ، فانقطع عن الدراسة الثانوية وعمل رجل أمن في البنك المقابل لنا عدة أشهر ، لكنه في إحدى الليالي ذهب مع صديقه إلى سوق الرياض الدولي ، وفجأة قابلهما رجال الهيئة واستوقفوهما ، وفي هذه اللحظة هرب صديق ناصر فلحق به رجال الأمن ولم يعثروا عليه ، فقبضوا على ناصر وسحبوه إلى مركز الهيئة ، قالوا له إن صديقك هرب لأن معه أشياء ممنوعة ، حلف لهم ناصر أنه هرب خوفا من الهيئة فقط ، لكنهم لم يصدقوه وضربوه من أجل الاعتراف أو أن يدل على بيته ، فأعطاهم كل المعلومات عن بيته وبيت صديقه ، وظل يبكي في المركز وارتفعت درجة حرارته ونقلوه متأخرين للمستوصف القريب ، كاد يموت بين أيدهم وهم يتفرجون أو يحققون مع آخرين ، وظل تحت مراقبتهم في المستوصف حتى جاء عمه وأخرجه بتوقيع تعهد ، قلت ليوسف : حرام يا بلد هذا الحقد على شبابك ، طلبت من يوسف كوب شاي بالنعناع ، وأمضيت الوقت أعبث بالجوال ، أنتظر صديقا يقتل وحدتي أو يقلني إلى سهرة باذخة في استراحة أصدقاء جدد .

في هذه اللحظة اتصلت نادية ، سألتني أين أنت ، قلت في المقهى ، قالت ما رأيك أن نلتقي الليلة في المملكة ، قلت لها : ممكن لكن بعد المغرب نؤكد اللقاء . . شكرتها وأغلقت الجوال ، ورحت أفكر بجد في موضوع نادية ، وجدت أن

مشاعري الداخلية حيال نادية بدأت تكون مترددة ، بدأت أضع مسافة بيني وبينها ، وأحيانا أشعر بميل قوي تجاهها فأتصل بها بلا سبب ، المشكلة أنني أرتاح إذا اتصلت بها وأخاف وأتردد إذا اتصلت هي بي ، صرت أتساءل لماذا لم تخبرني بمشكلتها منذ تعارفنا ، لماذا ظلت عدة أشهر غير واضحة ، وجدت أن الطريق مسدود كالعادة ، فانقطع التفكير فجأة ، وتذكرت النسخة الضائعة من رواية داوود ، الملك الجاهلي يتقاعد ، وتذكرت أنني أنسى سؤال تركي عن هذا الموضوع ، بسبب انشغالات سخيفة وبسبب نادية وبسبب داوود أيضا ، على الفور اتصلت بتركي .

قلت له : رجاء ابحث عن أوراق رواية الجاهلية لأننا سنعيد قراءتها من جديد .

قال لي : الورق موجود في الحفظ والصون .

قلت له : الحمد لله . . ظننت أننا فقدناها .

قال : لازالت موجودة في درج مكتب داوود .

قلت له : أرجو أن تعطيها إلى مصحح لغوي من زبائن المكتبة حتى ننشرها في حسابك أو حسابي على الفيس بوك .

قال لي : هي محفوظة في جهاز الكمبيوتر وراجعها داوود قبل فترة وكتب ملاحظات وإضافات .

قلت : ممتاز . . هل أنتظرك في المقهى؟

قال : طيب .

قلت له : قبل قليل اتصلت نادية .

قال : خير إن شاء الله .

قلت له : طلبت أن نلتــقي في المملكة . . تعــال ندرس الموضوع .

قال وهو يضحك : أنا مشغول .

ودعته وأغلقت الخط ، بينما كنت أفكر جديا في الاعتذار لنادية عن الموعد .

عرفت هذا المقهى حين كبرت فجأة ، وصرت طالب كلية قسم لغة عربية ، في تلك الفترة الممتعة والمرتبكة والمؤلمة ، حين كبرنا في لحظة مفاجئة وسريعة ، أنا وياسر وصالح ، وانتقلنا من الثانوية إلى الكلية ، بعد حياة موجزة وروتينية ، كانت في مجملها داخل الحارة ، بين البيت والمدرسة ومكتبة خالي داوود ، مع الأصدقاء أو زملاء الفصل ، حتى بيوت أغلب الأقارب كانت في حارتنا أو في الحارات القريبة المجاورة ، درست الابتدائي والمتوسط في هذه المدرسة الثانوية نفسها وسط الحارة .

أذكر حين زرت هذا المقهى المسمى همس العيون لأول مرة ، بعد التخرج من المرحلة الثانوية والبحث عن أي كلية عابرة في الطريق ، ذات صيف لا ينسى بصحبة خالي تركي ،

وتعرفنا فيه على ياسر وصالح في إحدى الليالي ، كنت أراهما في المدرسة الثانوية في الحارة ، لكن لم تكن بيننا علاقة قوية ، كنا نشاهد مباراة السوبر الأوروبي في كرة القدم في المقهى ، وبعد المباراة أخذنا جميعا طاولة على رصيف المقهى ، ثم ذهبنا إلى مطعم مجاور للمقهى ، واستمر التواصل بيننا ، بالذات في عطلات نهاية الأسبوع ، صار هذا المقهى مقرا لاجتماعاتنا ، وغالبا ينضم لنا خالي داوود وابن عمه سعود ، وكنا استأجرنا استراحة ليلة في الشهر لكنها لم تستمر طويلا ، ظل المقهى هو المقر الرئيسي لنا ، وفي فترة كانت تضايقني أسئلتهم عن نادية وتعليقاتهم ، كان سعود بلا صديقات ، وإذا تعرف على واحدة لا تستمر العلاقة أكثر من شهر دون أن نعرف السبب ، وياسر غير محظوظ في هذا الموضوع ، كانوا يذهبون جميعا إلى مولات الرياض المشهورة ، سعود وياسر وصالح ، للتعرف على صديقات ، ثم يعودون للمقهى خائبين ويتضاحكون من المواقف التي حدثت لهم ، أحيانا أذهب معهم ، أذكر قال لنا داوود مرة ، إن هذا الموضوع يعتمد على المصادفات وليس على البحث والركض في الأسواق .

سعود شاب بلا اهتمامات وبلا ميول ، قليل الاهتمام بنفسه ولباسه ، عنيف وحاد أحيانا ، اقتصادي في مصروفاته ، ويستقبل تعليقاتنا على بخله بصدر رحب ، وشعوره الداخلي يقول له : علقوا كما تشاءون لكن لا تقتربوا من جيبي ، يخطط

على ورث تركة والده من التجارة ، والده أيضا اقتصادي جدا ولديه خمسة محلات في عدة شوارع مهمة في الرياض ، أفضل ما في سعود روحه الكوميدية ومرحه الدائم ، وأسوأ ما فيه أنانيته التي تتضح في بعض المواقف وتجعلك تكرهه ، بينما ياسر على العكس ، تجده دائما أنيقاً في لباسه وفي أحاديثه ، يحب الموسيقى ويتابع مباريات كرة القدم العالمية والمحلية باهتمام كبير ، أما صالح فهو هادىء جدا وحذر قليل الكلام وكثير الضحك ، لكنه فضولي بشكل مؤدب .

داوود وابن عمه سعود في عمر واحد ، كبرا قبلنا ربما بعامين ، نحن انتقلنا للمرحلة الجامعية وهما انتقلا للمستوى الثالث في الجامعة ، لهذا كانت العلاقة بينهما قوية ، رغم شكوى داوود دائما من سلوكيات وتخلف سعود ، لاحظت أنهما يتخاصمان لكن يعودان بسرعة إلى بعضهما ، وهكذا تعودا على ما يبدو ، حين كبر داوود ودخل الجامعة بدأ يغيب مع سعود عن البيت ، وأيضا عن الحارة بأكملها ، لا أحد يعرف أين يذهبان ، ولا أحد يعرف من أين يأتيان ، كنت أراهما في الشارع أحيانا ، أسلم عليهما وأحلم أن أكون صديقا لهما .

سعود الخبير ، والمجرم الصغير ، تعلم مع داوود قيادة السيارة ، أخذا سيارة والد سعود القديمة خلسة وتعلما عليها ، وصارا يسرحان بها كثيرا ، وتعلما معا أيضا أشياء كثيرة لا نعرفها ، خلال هذه الفترة كنا نزور خالي داوود في المكتبة التي

فتحها بمساعدة والده ، أو نزوره في مجلسه . فتعرفت إلى سعود وصار يأتي للمقهى مع داوود أحيانا ، أنا وتركي نساعد داوود في المكتبة ، نجلس في المكتبة في حالات انشغاله ونتعلم البيع والشراء ونقيم علاقات وصداقات جديدة ، وكانت هذه من أولى نقاط التحول في حياتي ، فمن خلال هذه العصابة الجميلة ، بدأت أبتعد خارج الحارة ، وأقضي عطلة نهاية الأسبوع مع الأصدقاء في مطاعم ومقاه واستراحات وأسواق الحارة والحارات المجاورة .

يسكن خالي داوود في الشارع الموازي لشارعنا ، كنت أرى داوود في بعض مناسباتنا العائلية ، لكن لم تكن بيننا صداقة قوية بسبب انشغاله ، لهذا كانت فترتنا الجامعية الأولى أنا وياسر وصالح عاصفة ، بسبب استسلامنا لمغامرات سعود الغبية ، داوود لم يكن معنا في كثير من الأحيان ، لأن له علاقات واسعة مع أصدقاء وصديقات خصوصا بعد افتتاحه للمكتبة ، بينما نحن في عداد فقراء الصداقات والعلاقات .

تصاحبنا في رحلة تاريخية قصيرة للقاهرة ، داوود وسعود وياسر وأنا ، كانت رحلة متعة وإثارة ، درنا على أغلب الأماكن السياحية ، سهرنا ليلة في الحسين وليلة في فندق الماريوت وليلة في قارب وسط النيل ، وبما أن الملك داوود عاشق للتراث ، فقد اشترى بعض كتب التراث مثل (ألف ليلة وليلة) و(الشعر الجاهلي) لطه حسين ، وكتب عن حياة الجاهلية وشعرائها

وروايات نجيب محفوظ وروايات الجيل الجديد .

انقطعنا عن زيارة داوود في غرفته فترة قصيرة ، بعد أن حدث الخلاف بينه ووالده ، حول موضوع السهر في الملحق والعزف على العود ، وهنا اقترح عم داوود ، أن يأتي ليعيش في بيته مع ابنه سعود عدة أسابيع ، حتى تهدأ النفوس ، وافق داوود فورا ، فأعطاه خاله ، مفتاح ملحق الفيلا بعد أن أثثه وبنى بجواره دورة مياه ، ليسكن فيه داوود ، قريبا من صديقه سعود .

سعود التصق بداوود بشكل مزعج ، حاول تزويج داوود من أخته المريضة ، ثم صار هو وأهله يأخذون من المكتبة مجانا ، لكن بيت سعود تحول إلى ما يشبه السجن بسبب رقابة لصيقة من شقيقه الأكبر سعد ، الذي هرب أولاده وبناته وزوجته من قسوته وإهماله لهم ، وتركوا له البيت وحيدا ، فعاد إلى بيت والده وعاش معهم ، وصار يراقب تحركاتهم مثل جاسوس ، مثل حكومة متخلفة ، لكنهم اعتادوا على هذه الحياة البليدة ، وكانت الضربة القاصمة لسعود ، حين طلب منه شقيقه الكبير سعد البحث عن فيلا كبيرة يشترونها بدلا من هذه القديمة التي قارب عمرها عشرين عاما ، ثم حين أسر له جارهم حمد أن شقيقه سعد ومعهم بعض الموظفين ، هناك احتمال أن يكونوا متهمين باختلاس ملايين من صفقة بين العمل وشركة ما ، وأن مدير المصلحة سكت لأنه مشارك في الاختلاس ، وأن

موظفا في الشركة فضحهم وفضح هذه الممارسات التي تحدث في البلد بكثرة ، قام سعود بنقل ما سمعه من جارهم لشقيقه سعد الذي عالج جرأته بكف صارم على وجهه ، لم يفق منه سعود لمدة أسابيع ، أغمي عليه فورا ، نام في المستشفى عدة أيام ، أفاق فاقدا للذاكرة وأكمل النوم في البيت عدة أسابيع ، كان يشعر حين عاد للبيت أنه مجنون ، لم يكن مسيطرا على عقله بالكامل ، وكان يعالج كل هذا بالضجيج وكثرة الحركة باعتبارها حركة تمرد ، لم يعلم أن شقيقه ترك العمل بعد التحقيق في موضوع الاختلاس ، وتدهورت حالته ، لكن في مرة ، بعد صلاة الجمعة ، تقابل صديقنا الفضولي المتميز صالح مع سعود على الرصيف ، قال له صالح : سمعت أنك ستقتل شقيقك سعد ، قال سعود له : أعوذ بالله . لم يكن صالح يعرف أن سعود فقد جزءاً من الذاكرة ، إلا حين سأله من أنت ، قال له صالح باندهاش : أنا صالح ، قال سعود : تعال معي للمقهى ، قال صالح وهو خائف : عندي مذاكرة . . سلام ، وترك سعود على الرصيف ، بينما سلك سعود طريقا آخر يبحث عن مطعم يتغدى فيه .

لعب سعود وداوود كثيرا ، وسافرا كثيرا ، لكن مفاجآت الحياة كانت لهما بالمرصاد ، حين صعقت الأسرة في ما بعد ، بتكسر سعود في حادث سيارة خارج الرياض ، كان يسير بسرعة مجنونة كعادته ، وهو متجه إلى الدرعية لتجديد رخصة

سير ، فانفجر الإطار الأمامي وتقلبت السيارة بسعود المسكين حتى كاد يفارق الحياة ، وهنا بدأ التغير على داوود والانقطاع عنا وعن العالم ، لهذا وجد داوود في هذه الصدمة خلاصه لكي يفيق قليلا على واقع أن الحياة غير مأمونة الجانب ، قرر أن يمضي وحيدا ، فعاد إلى محله ومكتبته للاهتمام بها ، لكن أحواله النفسية كانت تسير للخلف وتتدهور بسرعة كبيرة دون أسباب واضحة ، قال لي مرة ياسر إن مشاكلات داوود بسبب إدمان حبوب مضادات الكآبة ولم أصدق ، لكني بدأت أشعر أن خالي داوود يخفي أشياء كثيرة عنا جميعا .

يتذكر داوود بعد تخرجه مباشرة ، مرحلة طويلة من العذاب ، والحوارات العجيبة المؤلمة بينه وبين والده ، في غرفة داوود الخارجية ، التي تحولت إلى ثلاجة مكتومة الأنفاس ، والده الموظف القديم يفتح باب الثلاجة كل صباح مبكر ، فيرى ابنه ممدداً على الفراش ، مدّثراً نفسه ببطانية ثقيلة ، لكنها قصيرة فتبين أطرافه ، وبجوار نومته المتطامنة تجد : منفضة سجائر مليئة ، أكواب شاي فارغة ، جهاز تسجيل تصدح منه بصوت خافت ، موسيقى لعبدالحليم حافظ ، وملف طلب وظيفة ، عليه بقايا أكل ، وكتابات عشوائية . وعليه تاريخ العام الماضي ، ثم تعليق مدير مسئول يفيده أن اسمه في قائمة الانتظار .

يهتف الأب بابنه :

اصح يا عديم الفائدة . .

يرد الابن بنصف يقظة :

ماذا تريدون ؟

انهض . . يا عدو الله

طيب . .

ثم يخـرج الأب إلى عـمله ، ويعـود الابن إلى نومـتـه المتطامنة .

الأب يريد ولده أن يفـتح المكتـبـة أو يبـحث عن عـمل ، والابن يفكر في الكتابة والفن والأصدقاء ، وهكذا ، في حوار صباحي يومي صغير ، لا يمله الأب ، واعتاد عليه الولد ، حتى صار جزءاً من واجباته القليلة التي يقوم بها ، يخرج الأب من هذه الثلاجة وهو يشعر كما لو أنه أزاح حملاً ثقيلاً عن ظهره ، ويظل الابن ، كل صباح ، يحاول أن يغطي ساقيه المتجمدتين مثل خشبتين .

وفي ضحى البيت الساطع ، الشمس الرائعة تهطل على بهو البيت المفتوح قليلاً .

والأم المبتهجة تقول لجاراتها إن ابنها (العاطل) عن العمل ، تقدم لوظيفة كبيرة ، وإنهم وعدوه خيراً ، ثم تضحك الأم . . وتكمل :

ابني وعدني بتغيير أثاث البيت ، وشراء جوالات جديدة لنا وسفر إلى دبي ، تضحك أيضاً : لقد كبر ، ويبحث له عن امرأة تكمل نصف دينه ، ثم تكتم بكاءً قديماً ، وتصمت ، فهي

تدرك أن ابنها ممدد هناك ، في ملحق البيت منذ أشهر طويلة ، كأنه خشبه لا حراك فيها ، بينما تنبعث من مكانه ، رائحة خافتة جداً لموسيقى عبدالحليم حافظ .

المكان الحر الحلم

استغربت نادية من اهتماماتنا أنا وداوود باللغة العربية والتاريخ ، واندهشت من فكرة الكتابة الجماعية ، لرواية جاهلية حديثة .

كنت قد خرجت مبكرا من البيت في صباح ممل ، اتصلت بها ، واتفقنا على اللقاء في مقهى عائلي في أسواق اليورمارشيه شمال الرياض ، كنت أشعر بشوق لها بعد أن أمضيت عدة أيام أفكر فيها حتى التعب ، وصلنا السوق ثم إلى المقهى مباشرة ، جلسنا على الطاولة .

قالت نادية : أشعر كأنني في حلم . . هل يعقل هذا .

قلت لها : لماذا لا . . تمارين مشوقة لكتابة رواية جاهلية حديثة .

قالت : أقصد أن اهتمامات الشباب هي الكورة والسفر والطرب .

قلت لها : هذه المحاولة تضاف إلى السفر والطرب

والكورة . . ونخطط في المقهى لتنفيذ فكرة مخيم في الثمامة ليومين .

قلت لها : هل تحبين القراءة؟

قالت : أحيانا .

قلت : ماذا قرأت وماذا أعجبك .

قالت : أعجبتني شقة الحرية للدكتور غازي القصيبي .

ثم سألتني : من هو صاحب الفكرة؟

قلت : فكرة ماذا؟

قالت وهي تبتسم ابتسامتها الهادئة : الرواية الجماعية يا أبو جهل .

قلت : قصدك أبا جهل .

قالت وهي تضحك : المهم هو جهل .

قلت : جاءت الفكرة بالتدريج ، من خلال مكتبة يملكها خالي داوود ، وهو عاشق للتراث ، كان يحدثنا عن الجاهلية وعن كتب أخرى تراثية عربية جميلة ، وحكى لنا في إحدى المرات بعض القصص ، وأكملناها مع بعض ذات ليلة حمراء .

قالت : حمراء .

قلت وأنا أفتخر : نعم حمراء تسر الناظرين . . لكن مؤدبة .

بعد المقهى خرجنا من السوق ركبنا السيارة ، أوصلت

نادية ، وعدت للبيت ، قلت سأنام حتى العصر ثم أذهب للمقهى لالتقاء ياسر وصالح لتنفيذ فكرة مخيم الثمامة .

تعرفت على نادية ، في مقهى الشاهي العائلي في شارع التحلية بالعليا ، وعرفت بعد ذلك أن نادية تعرف خالتي سارة من طريق صديقة قديمة .

حين رأيتها أول مرة ، قلت هذه هي ، قلت ذلك حين شعرت بحرارة في قلبي ، وحين لاحظت أنني بدأت أرتبك وأتلعثم وأبدو مثل طفل ، ثم لاحظت بعد ذلك اشتغال خيالي بشكل جعلني أتصور أحلاما خيالية بيننا ، قلت في نفسي : هذا هو الحب ، وعندما لمحت عينيها وقد تركزتا على عينيّ تماما ، في تلك اللحظة الوامضة ، لكن العميقة ، أحسست أنني صرت مثل ضوء يهتز ، شعرت بشيء لذيذ وعظيم هز كياني ، صاحبه شعور بالخجل ، فاضمحلت روحي في مكاني ، وصرت على وشك الذوبان ، كنا في زيارة عائلية لهذا المقهى ، أنا ووالدتي وأخواتي وخالتي سارة ، المقهى على شكل حديقة مقسمة إلى مربعات في الهواء الطلق ، قلت في نفسي إن هذه الأشياء الجميلة لا تحدث كثيرا ، مضيت وخلفي تتناثر ابتسامات خجولة ، لكني طاردتها ، طاردتها بهدوء قلق ، حتى استطعت أن أقبض على قلبي ، مفعما بالخجل والبهجة المرتبكة ، حين لمحتها تدخل في صحبة أهلها إلى إحدى الجلسات العائلية غير المسقوفة ، فجذبني شيء جميل فيها ،

لا أعرف ما هو ، جلست مع أهلي قليلا أبعثر النكات واللعنات والضحكات ، ثم خرجت ، أمشي باتجاه باب الخروج على الأرض المبلطة بحجر أحمر ، وعلى جانبيه تصطف غرف العائلات ، وفي نهاية الممر توقفت قليلا ، ثم اتجهت إلى باب الدخول للمقهى ، وقفت قليلا هناك ، ثم عدت أتمشى ، فوجدتها تقابلني ومعها بعض الأطفال في الممر ، وقعت الأعين على بعض مرة أخرى ، وفي هذه اللحظة فقط أدركت أن بهجة تاريخية رائعة ، تسجل تفاصيلها الآن على جدار ذاكرتي ، التي أفتخر بقوتها ، توقفت فورا مثل مصدوم وأبقيت عينّي على عينيها ، حتى تجاوزتني ، عدت إلى أهلي في الجلسة العائلية وشربت الشاي معهم على عجل ، لم أستقر في جلستي ، استأذنت وعدت للممر مرة أخرى ، توقفت عند بائعة الاكسسوار ، تلفت ، لم أجد أحدا ، خرجت من المكان تجولت في الشارع خارج الحديقة ، عدت إلى الحديقة ، فوجدتها كما توقعت أو كما حلمت ، تقف أمام ركن الاكسسوار ، لم أتجاوزها بسهولة ، مررت ببطء وهدوء ، لكن قوة النداء الداخلي ، جعلتني على غير عادتي ، أكسر خجلي وأتوقف ، ثم أعود لركن المحل ، لأقول بما يشبه الهمس بعد أن اقتربت منها قليلا : كيف الحال قمر ، بصوت كأنه ليس لي ، ثم أقّلب في قطع الاكسسوار لأداري خجلي ، لكنها لم تمهل خوفي وارتباكي ، فقد كان رد فعلها رائعا ، جعلني أنتعش

وأشعر بالنجاح حين ردت بهمس : أهلا ، دون أن ترفع عينيها عن البضاعة المعروضة ، هنا شعرت أن أبوابا كثيرة انفتحت في طريقي ، كانت البنت واقفة مع الأطفال أمام المحل ، ولمحتها قبل أن أغادر تقلّب عقدا فضيا ، تركت المحل خطوات ، لكنني عدت ، وفي يدي ورقة صغيرة فيها رقم هاتفي الجوال واسمي ، مددت الرقم وأنا أقول لها : آسف للإزعاج ، أخذت الرقم بحذر ، ثم تركت المحل فورا ، وتركتني في حال من القلق والابتهاج .

في المساء اتصلت بي ، أجبت على هذا الرقم الجديد ، ومن أجل أن أكون أكثر بساطة ، قدمت شكري فورا على اتصالها ، ثم أعطيتها رقم الهاتف الثابت ، وطلبت منها الاتصال حالا ، أغلقت الجوال ، ليشتعل صوت الهاتف الثابت بالنداء الجميل ، رفعت السماعة وفي الحال ، قلت لها : الثابت مريح وغير مزعج ، قالت : صحيح ، قلت لها : أعتذر عن إزعاجك في حديقة الشاي ، قالت : عذر مقبول لكن لا تكررها ثانية ، أربكني الرد وضحكت ، قلت لها : من يعرفك لن يكررها ، سألتني : لماذا أردت التعرف عليّ ، قلت : وجهك البسيط فيه شيء شدني للطفولة .

قالت : وماذا بعد؟

قلت : عيناك .

سألتها عن اسمها .

قالت : نادية . .

سألتني : وأنت؟

هل اسمك هو وليد المكتوب على الورقة .

قلت : نعم .

وأضفت : أنا جاد جدا ولست صاحب لعبة عابرة .

سألتني بارتياح : ماذا تفعل الآن؟

قلت : لا شيء لكن في مثل هذا الوقت قبل النوم أقرأ الجريدة .

قالت : هل تتابع المسلسل التركي؟

قلت : لا .

قالت : لماذا أنتم الرجال لا تتابعون هذه المسلسلات الجميلة؟

قلت : لا أعرف .

قالت : الجميع يتابعونها ماعدا أنتم . . هل تنقص الرومانسية حياتكم؟

ضحكت وقلت : لا أظن لكنها مسلسلات طويلة جدا .

قالت : أختلف معك لأني أشعر أن أغلب الرجال لدينا لديهم مفهوم سيء عن الرجولة .

قلت : أتفق معك لكن ليس الجميع بهذا الشكل .

قالت لي : ما الذي جعلك تتذكر طفولتك حين رأيتني؟

قلت : في صغري أعجبتني ابنة أقرباء لنا ، وهم جيران

أيضا ، أحببتها لأنها علمتني كيف أنفخ بالونة من العلك .

قالت بسخرية : وبعدين؟

قلت بإحـراج : هي كـبـرت وتزوجت . . وأنا كـبـرت ولم أتزوج .

قالت : هل سارة قريبة لك؟

قلت متفاجئا : سارة خالتي . . هل تعرفينها .

قالت : نعم كانوا جيران وهم أقرباء من بعيد .

قلت لها : يفرحني هذا الخبر . . لأني أحب خالتي سارة .

قلت : بلغها سلامي .

قلت : حاضر .

بعـد أسـابيع من مكالمات جس النبض ، أعطتني وصف مكان عـملها ، كـان قريبـا من بيـتنا ، فانطلقت إلى حي غرب البديعة بعد المغرب ، حيث تعمل في بنك للتدريب ، كانت تنتظرني عند الباب .

ركبت وهي تقول : السلام .

قلت : عليكم السلام .

ثم سألتها : كيف حالك؟

قالت : تعبانة .

قلت : ألف لابأس يا أم المؤمنين .

قالت وهي تضحك : شكرا .

قلت : أين تريدين أن نذهب؟

قالت : على كيفك .

وأكملت : إلى أي مكان جميل .

قلت : للأسف الأماكن الجميلة قليلة في الرياض .

قالت : أي سوق .

قلت : ما رأيك في مطعم العائلات في أسواق المملكة؟

قالت : طيب .

قلت : توكلنا على الله .

قالت : بارك الله فيك ، وهي تضحك ضحكتها الصغيرة المعتادة .

وصلنا العليا ، صعدنا السلم الكهربائي للدور الثالث ومن ثم اخترقنا ملاهي الأطفال الصغيرة نحو الكافتيريا العائلية المجاورة للملاهي ، المكان واسع وفيه طاولات مفتوحة ، وطاولات داخل غرف تحيط بها سواتر خشبية ، جلست نادية على كرسي عند إحدى الطاولات ، وأنا ظللت واقفا ، سألتها ماذا تشرب .

قالت : أي شيء .

قلت : ما رأيك في شاي بالنعناع؟

قالت : أوكي .

ذهبت وأحضرت كوبين شاي .

جلست فوجدتها تستمع لأغنية ، خلعت السماعة ، وقالت مشكور .

سألتني : تحب هذا المكان؟ . .

قلت : لا . . أنا والأصدقاء نذهب إلى مقهى همس العيون القريب من السوق الدولي .

قالت : أعرفه . . نمر من عنده دائما .

قلت : ربما رأيتني هناك قبل أن نتعارف .

قالت : يمكن .

ثم سألتني : ماذا تفعلون في المقهى؟

قلت : نكتب حكايتنا الجاهلية .

قالت : كيف .

قلت لها وأنا أحرك السكر في الكوب : أنا والأصدقاء في المقهى كتبنا رواية بعنوان الملك الجاهلي يتقاعد .

قالت : فكرة حلوة . . رواية جماعية .

قلت لها : الصديق داوود أبو سليمان أوحى بالفكرة ثم كتبها ونحن ساعدناه ببعض الفصول الكوميدية .

قالت : ما حكاية الرواية؟

قلت : تفاصيل كثيرة .

ضحكت نادية وقالت : ممتاز .

قلت لها : وأنت ما هي حكاية تعبك؟

قالت : يعني . . لا تهتم .

قلت : لو سمحت أريد أن أعرف .

قالت هل تريد أن تكتب حكايتي مع أصدقاء المقهى .

قلت : لا طبعا . . لكن صار يهمني أمرك .

قالت : شكرا .

قلت : أيضا أريد أن أتعرف عليك .

قالت بهدوء وهي ترشف من كوب الشاي : أنا من عائلة كبيرة جدا من حيث العدد ، نشأت في حي البديعة ، يوجد به عشرة بيوت متجاورة لوالدي وأشقائي وأعمامي وأخوالي وأزواج أخواتي ، لكن هذا التجمع العائلي تهاوى ، هذه العائلة الكبيرة جدا تهدمت مثل جبل سقط سهوا .

ضحكت من وصفها وقلت لها : أنت بارعة في الوصف . .

قالت : شكرا .

قلت لها : وكيف سقط الجبل بهذه السهولة؟

قالت تفرق الجمع بطريقة عادية ، بمعنى كل عام أو عامين نسمع أن هناك من باع بيته وغادر ماعدا والدي وعمي هما الوحيدان الباقيان في الحارة وبقيا فيها حتى ماتا .

قلت : وما هي مشكلتك؟

قالت : حكايتي أني أشعر بالملل وتشابه الأيام .

قلت لها : نحن جميعا نعاني من هذا في مجتمع محدود الاهتمامات .

قالت : أنتم تقودون السيارة وتذهبون للملعب وللبر وتسافرون .

قلت : فعلا . . مع ذلك هي مملة وقليلة الخيارات . . لكن

أشعر أن عدم قيادة المرأة للسيارة لدينا تعبر عن حالة مرضية .

قالت : صحيح . . مرض مزمن يحتاج للكي .

ضحكت من طريقتها في التعبير .

قلت لها وأنا أضحك : ربما الموضوع يحتاج حركة شعبية وليس مظاهرة نسائية صغيرة ومرتب لها .

قالت : صحيح . . لكن أنا أحلم بفكرة مجنونة .

قلت : ما هي؟

قالت : العمل في الإمارات .

قلت : صعب .

قالت : أعرف . لكن أحلم بمكان حر أعمل به .

وهكذا تواصلت بيننا المكالمات واللقاءات القليلة . . لكن انشغالنا بالدراسة جعل العلاقة والتواصل في أوقات متباعدة .

كوميديا الحبوب المهدئة

في العصر توجهت للمقهى ، بعد نومة طويلة ، ثم غداء سريع ، كان يوم غائم وممطر وجميل ، اتصلت بالعصابة فعرفت أنهم سبقوني للمقهى ، وجدتهم هناك ، أخذوا طاولة على الرصيف كالعادة ، ياسر وصالح وتركي ، وعلى الفور بدأت اتصالات صالح ، صديق البراري والمخيمات ، لاستئجار مخيم في الثمامة نقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع ، لكن فجأة حضر سعود وأفسد البرنامج ، قال لنا وهو واقف : بعد قليل ستنطلق مباراة مهمة في كرة القدم بين فريقي حي البديعة وحي العليا ، ضروري نحضر لتشجيع فريق حارتنا ، وأكمل يشجعنا على الحضور : هناك شاي وعصائر ومتعة كرة قدم وكل ما تشتهون ، قال ياسر : عندنا مشروع مخيم في الثمامة ، قال سعود فورا : بعد المباراة ، باقي من الوقت نصف ساعة فقط .

التفتنا لبعض ولم نجد قدرة على معاندة سعود ، انطلقنا أنا وياسر في سيارة صالح ، وسعود بسيارته أمامنا ليدلنا على

الطريق ، وتركي اعتذر وعاد إلى بيتهم . وصلنا العليا ، وكانت المبارة قد بدأت ، وجدنا مدير فريق نجمة الملز يجلس على سجادة كبيرة ويتفرج بحماسة على المباراة ، لأن الفريق الفائز هذا اليوم سوف يلعب مع فريقه على النهائي غدا ، وكان أمامه ترمس كبير من الشاي ، حين رآنا وقف هذا الولد المشهور الذي يعرف صديقنا سعود ، سلم علينا بصمت وبسرعة كأنه مسئول كبير ، ثم جلس ، لكني لاحظت أن مدير فريق نجمة الملز هذا ، كاد أن يسقط وهو يحاول الجلوس ، ترنح قليلا ثم استعاد توازنه .

اسمه أحمد أبوراس ، أكبر منا ربما بثلاث سنوات ، أبيض ونحيف ووسيم ، لكن واضح أنه ابن عائلة غنية جدا ، يأكل الحبوب ويشرب الشاي بكثرة ، وينظر إلينا بصمت ، في البداية كانت تخيفني نظراته ولهذا ركزت على المباراة ، وصرت أختلس له النظر معجبا بشخصيته ، وأغبطه على هذا المنصب ، رئيس نادي الحارة ، شيئ جميل مثل الحلم ، ولاحظت أن هناك بجانب هذا الولد المدير ، ويميل عنه للخلف قليلا ، ولد صغير طويل وأسمر ، يصب له الشاي ، هذا الولد يجلس إلى جانب أحمد أبو راس كأنه ظله لينفذ طلباته ، حين جلسنا كان مدير فريق نجمة الملز يوجه اللاعبين بحماسة ، وصديقنا سعود يصب لنا الشاي اللذيذ ، دفعني سعود بمرفقه لكي أرى الحبوب التي على المنديل فلم أفهم ، قال بصوت خافت : الحبوب ، لم أنتبه لأني كنت أتأمل أبو راس ، أتفرج على حركاته وطريقة

كلامه وأسرح كثيرا ، لكن سعود غضب مني ونظر إلي بعيون حادة ثم نظر إلى المنديل فانتبهت ، وبعد قليل لاحظ أبوراس أننا ننظر إلى المنديل الذي على الأرض ، منديل أبيض سميك عليه حبوب من نوعين ، حبوب بيضاء وحبوب برتقالية ، وفي هذه اللحظة قال أبوراس لصديقه سعود : الحبة اليوم صارت بعشرين ريالا ، وعاد يتابع المباراة .

قال سعود له : هل تذكر حين كانت بعشرة؟

قال أبو راس : هذا كان أول .

هنا تأكد لي وليـاسر ولصالح أن مابين أبوراس وسعود يتعدى المباراة ، ربما تاريخ طويل من الفساد .

أخذ أبو راس من على المنديل أربع حبات ورماها على سعود .

أنا وياسر وصالح ، كنا نتابع كل هذا باندهاش وعيون تتحرك فقط ، بالذات صالح الذي يضحكني خوفه واندهاشه من كل شيء .

قال سعود لأحمد أبو راس : تسلم ياريس .

ثم أعطاني سعود ثلاث حبات ، وأومأ بأن أعطي البقية حقهم من المعونة التي هبطت من السماء ، وأنا بدوري أعطيت ياسر حبتين ، واحدة له وأخرى لصالح .

قلت لسعود : ما هذه؟

قال : حبوب مهدئة .

قلت وأنا أضحك : الله يهدي أحوال المسلمين .

قال : هل تريد النتيجة سريعة أم بطيئة؟

قلت : كيف؟

قال لي : انتبه يا أبا جهل . . إذا كنت تريد مفعولها بطيئا وبلا مرارة في الطعم ، أبلع الحبة واشرب معها الشاي أو الماء ، وإذا أردت نتيجة سريعة افتح الكبسولة بهدوء وضع مسحوقها المر في كأس الشاي .

ثم قال : هل فهمت يا أستاذ متخلف .

ضحكت وقلت له : نعم .

قال سعود : إذن . . أخبر أبا جهل الثاني الذي يجلس بجوارك وأيضا رفيقه .

وعلى الفور التفت إلى ياسر وأنا أضحك .

سألته : هل تريد النتيجة بطيئة أو سريعة؟

قال ياسر : سريعة .

أخذت منه الكبسولة وفتحتها ووضعت مسحوقها في كأسه ، وحذرته من مرارتها .

لكنه رد على الفور : هات الكأس يا تعبان ، ثم شرب كل ما في كأس الشاي دفعة واحدة ، وأنا فعلت مثلما فعل ياسر ، لكن صالح قال لنا إنه ابتلعها وشرب خلفها الشاي ، وأنا شككت في ذلك ، ربما رماها في جيبه أو في أرضية الملعب ، فأنا أعرف حركات صالح .

بعد لحظات ، شعرت بمرارة الكبسولة في حلقي ، وشعرت أيضا بدبيب وتنميل في أطرافي ، وما يشبه الدوار في الرأس ، والرؤية معتمة وكأن الجو في حالة ضباب قوي ، لاحظت على يساري أصواتاً دون أن أرى أحدا بشكل واضح ، كان سعود منهمكاً مع مدير فريق نجمة الملز أبوراس في حوار عقيم وسقيم عن المباراة ، ومن هو الفريق المؤهل للفوز ، بينما على يميني ياسر وصالح لا أكاد أراهما ، كأنهما هناك في البعيد ، ياسر يتحدث ربما مع نفسه ، أو ربما يتحدث مع صالح وأنا لا أسمع بوضوح ، ياسر غير واضح المعالم ، وصالح كان على وشك الاضمحلال ، ويبدو أن ياسر متورط مثلي في هذا الخدر ودوار الرأس وعدم القدرة على الكلام ، كل ما أستطيع فعله هو النظر بهذه العيون المندهشة ، أو التفكير في أشياء كثيرة دفعة واحدة ، حيث اشتعل الذهن بشكل كبير ، وبدأت أتذكر نادية ، وأتذكر ترددي في الزواج منها وشكوكي تجاهها ، هل أنا صح أم خطأ ، وبدأت ألوم نفسي ، كيف أتهرب من هذه الإنسانة الجميلة ، وشعرت أنني أحبها بجد حين تيقنت أنني أحتاجها في هذه اللحظة لإنقاذي .

لازال التنميل في أطرافي مع شعور غريب أنني بلا يدين ولا قدمين ، مددت يدي باتجاه ياسر ، لمست كتفه ، قال بتثاقل : نعم ، قلت له : أبداً . . ما فيه شيء . لكن لازال الشعور الغريب يكبر بأني فقدت اليدين والرجلين في معركة وهمية ، تلمست رجلي وقدمي ، وفرحت حين وجدت هذه

الأشـيـاء في مكانهـا ، فـقلت الحـمـد لله ، وضـعت يدي بين فـخذي فلم أجده ، حـركت يدي ذات اليـمين وذات الشـمـال حتى وجدته نائما في زاوية من اللبس الداخلي ، قلت : ليس معه حق أن ينام ويتركني في هذه الظروف الصعبة .

اقتـربت من ياسر وأخـبرته ، قال لي وهو متضايق : أقسم بالله أنك فاضي ، لهذا أنا صَمَتُ مكسور الخاطر ، كان ياسر يظن أنني أمزح ، لم يعرف أنني مهموم ومتورط مثله ، تلفت أبحث عن صالح لكن لم أجده ، في هذه اللحظة استلقيت على ظهري رغما عني ، رقدت على ظهري نصف رقدة ، ولاحظت يد سعود تمتد وتنتشلني من حفرة كنت أظن أنني سقطت فيها ، وهنا سمعت أبو راس يقول لسعود : لا تحضر هؤلاء الأطفال مرة أخرى ، وأظن أنه كان يعنينا أنا وياسر وصالح ، فتألمت في داخلي ، لأنني كنت أتوهم أنني كبرت ، بينما الواقع الآن يقول إنني لا زلت صغيرا أمام أبو راس ، كنت أريد أن أقول له إنني أمزح حين رقدت على ظهري ، لكن لم أستطع النطق بكلمة واحدة ، وفجأة جاء الحل ، وجدت صالح يحضر في الوقت المناسب ، أخذنا بصعوبة ، أنا وياسر ، كنا نحاول توديعهم لكن لم نستطع ، أركبنا السيارة ، وفي الطريق إلى بيوتنا انتابتنا ، أنا وياسر ، موجة ضحك غريبة ، لا نعرف على ماذا ، وكان صالح يضحك علينا بهدوئه المعتاد ، أوصلنا بيوتنا ثم لاذ بالفرار .

تمارين حلم اليقظة

دخلت البيت بخطوات حذرة بعد أن خف مفعول تلك الحبة المهدئة أو المنومة أو المنشطة ، لا أعرف وظيفتها بالضبط ، دخلت غرفتي وأغلقت الباب والستارة وأنا أشعر بخوف غريب ، حاولت النوم ولم أستطع ، بعد ساعة غفوت غفوة مرتبكة ، موجزة ومكثفة ، الأحلام تتداخل ، والدخان لايزال في رأسي ، والحبة أشعر أنها لازالت في فمي ، في حين يحاول حلم اليقظة الجنسي أن يبعد النوم كثيرا ، ويجعل المنطقة التي أسفل بطني تؤلمني ، لهذا دائما ما أحول موجة حلم اليقظة إلى السينما ، حاولت تأليف فيلم عن حياتي مع نادية التي خذلتني ، بدأت تأليف الفيلم وخلال دقيقتين كان الفيلم جاهزا للعرض ، فجأة ينقطع التفكير ، فتتحول الموجة إلى كرة القدم ، لكن لماذا هذه العلاقة بين الحبوب والأفلام والنساء وكرة القدم ، لماذا هذا الرابط بينهما مغروس في العقل الباطن والظاهر ، وهنا عاد الصوت الغامض الخفي الملعون الذي يهز

روحي ، كـأنه يؤنبني على آثامي ، صـوت كـأنه يأتي من تلك الأعـمـاق القـديمة في روحي ، يأتي في لحظة سـريعـة ، يهـزني ويصيبني بلحظة رعب سريعة ويمضي ، فأشعر بعده بصعوبة في التنفس وحـالة رعب صـغـيـرة وتأنيب ضـمـيـر ، عـادت أيضـا الرائحـة المزمنة ، رائحـة الدخـان ، شـمـمـتـهـا وهي تنبـعث من صدري ، شيء يشبه شواء شعر الماعز مثلا ، شعرت أنني كائن على وشك الاحـتـراق ، ركضت إلى الحـمـام ، دخلت وخلعت ملابسي ، وقفت تحت الدش فتحت الحنفيـة ، اندفع الماء باردا لذيذا على رأسي ، وبدأت أنظر من خـلال المرآة الكبـيـرة في جسمي ، جسدي الذي لازلت أشعر بالفخر كلما رأيته عاريا هكذا ، هذا الجسد الذي قالت أمي إنه صورة من جسد والدها القوي الشامخ ، مثل جسم رياضي ، عريض الصدر ومتناسق ، لهذا لم أستطع طرد فكرة أو أتخيل أن يكون بجواري الآن امرأة عارية تقاسمني مساحة هذا الحمام المغري ، وربما هذا أفضل من التفكير في أوضاع الأمة ، فهذه الأوضاع حين تحاول الاقتراب منها بفوضاها المعروفة قد تصيبك بصداع مزمن مثلا ، أو حتى وضعك الذي لا يحتـاج إلى دراسـات لكي تفـهـمـه ، لكن إلى القليل من المال ، نعم امرأة جـميلة ، ثم تطلق أغنيتك عـاليـا ، تسـيـر خلفك وأنت تمضي بهـدوء في هذا الطريق الموحي والعذب ، موسيقى هادئة لذكرى أو ميادة مثلاً ، لكي تضيف على هذا الجو الشاعري كثافة وعمقا وشحنات من شجن ، أو

لنقل امرأة بدأ جسدها ينهض ، بنت تليق بشاب طيب مثلي ، لكن فكرة تصور أو تخيل جسد فتاة نهض من أرضه الخصبة الآن ، تبدو مسلية وممتعة ، وقد أفصح هذا الجسد عن رائحة دافئة ولذيذة ، وعن نهدين صغيرين ، وجسد ترغب أن تمرر أصابع يدك الباردة على كامل تضاريسه ، بدءا من العنق نزولا إلى مساحة الصدر ، ثم النزول الى . . . وهنا توقفت ، فالمشكلة أن الخيال سوف يظل خيالا ، وتربيتي قد لا تسمح ، لهذا لابد أن يرتطم رأسك بحائط الواقع أو حائط هذا الحمام الماثل أمامك . . في هذه اللحظة ، رأيت الماء داكنا تحتي ، فأصابتني رجفة قوية من هذا المنظر ، ماء داكن فعلا له لون التراب ، كأنه ماء غدير سيل في البراري ، إنه لون عشر سنوات مضت من حياة أشبه بالفيلم السريالي والكوميدي ، حياة لم تكن جادة تماما ولم تكن هازلة تماما ، ربما كانت تدّعي الجدية ، قلت وأنا أنظر في الماء الداكن الذي أصبح جسدي يعوم فيه : ربما هذا لون أثآمي ، قلت إنني لم أؤذ أحدا في حياتي ولم آكل مالا فاسدا ولم . . . ، وسرعان ما تغير كل شيء ، حين رفعت غطاء تصريف الماء في المغطس فانطلق الماء الداكن يتجمع قريبا منها حتى نظف المغطس تماما ، أغلقت فتحة التصريف ثم فتحت الماء الدافيء ، الذي غمرني بعد ثوان بلون صاف لا شك فيه ، فارتحت مستلقيا داخل الحوض ، وبدأت أحصي مكاسبي وخسائري القديمة من حياة الغموض

واللهو والعبث ، وحين هدأت أكثر وارتحت لكل النتائج الجميلة التي توصلت إليها ، والتي هي في الحقيقة واضحة جدا ، مثل : تورد خدي وارتياح نفسي ، كل هذه نتائج لا تحتاج إلى شك في أن هناك شيئاً ممتازاً يحدث في حياتي وأنا غافل عنه ، الآن أعود إلى مائي الدافيء مرة أخرى متحررا من كل شيء مع الشعور المتجدد والمتكرر بأني إنسان جديد ، الآن هذا هو الحمام الذي لعبت فيه طفلا ومراهقا ، وارتحت فيه ليال طويلة في الطفولة ، لهذا أتذكر ذلك المساء الحزين المؤلم الذي خرجت فيه من الحمام عاريا ، خرجت حين شعرت أن القدر قذفني مثل رصاصة خارج الحمام بكامل جسدي المراهق ، والماء يقطر من جسدي ، وقد كان من المفترض أن ألبس شيئا يسترني ، أو أخطف فوطة وأنا أركض خارجا ، في طريقي إلى الصالة ، هذا ما كان مفترضا ، لكن الواقع يأتي خلاف ما نفترض ، حيث إن صرخة قوية من أختي ، حين أغمي على والدي ، نزلت كالصاعقة على رأسي ، وكنت أظن أن نارا اشتعلت في ملابسها ، والمؤسف أننا نظن دائما أننا نجيد التصرف في المواقف الصعبة ، لكن حين تدهمنا هذه المواقف على حين غرة ، نكتشف أن عقولنا قد طارت من رؤوسنا ، ونتصرف على أساس أننا بلا عقول ، وهذا ما حدث لي في تلك الأمسية الملعونة ، فبينما كنت كعادتي ، أستمتع بقطرات الماء وهي تنساب على جسدي الجميل ، سمعت صرخة أختي ، وفي

تلك الثانية من عمر الزمن ، توقف تفكيري وصرت جسدا يتحرك بلا دليل ، فخرجت من الحمام عاريا أركض للصالة ، وجدت والدي على الأرض ، فركضت لثلاجة صغيرة في ركن الصالة ، أخذت قارورة ماء كبيرة ، فتحتها وسكبت ما بها على وجهه ورأسه ، وحين وجدت أنه بدأ يفتح عينيه ويتنفس ، اكتشفت أن والدتي تطوق وسطي بفوطة حمراء كبيرة ، فحضنت والدي وأجلسته في حضني ، ثم استلمته أمي بمساعدة أختي ، وأنا ركضت إلى غرفتي أستر عورتي .

هنا انقطع تفكيري فجاة أيضا محاولا الهرب من الذكريات السوداء ، وبدأت أفكر بهدوء وعمق في حياتي وأحوالي ، وفي ظروفي وفي ترددي ، ومن منا لم يفكر في الحمام في وضعه المادي وأحواله وأحوال أهله ، من منا لم يرتكب هذا الفعل غير المخل بالآداب ، صحيح أنني حين أفكر في هذا الأمر سوف أكون عاريا كما ولدتني أمي ، لكن بين جدران أربعة لا يراني سوى الرب سبحانه وتعالى ، ولهذا فليس من الجرم أن أفكر في أحوالي المتدهورة أو الجميلة مثلا ، أو أن تخطر في بالنا جميعا وخيالاتنا صور لذيذة نستمتع بها في أوقاتنا السيئة .

خرجت من الحمام مرتاحا بعد هذه التخاريف المعتادة ، وجدت أنني غير جاهز للنوم ، كنت أشعر كالعادة ، أنني في حاجة إلى فعل شيء ما ، كنت غامضاً حتى التعب ، بالأحرى ، تائهاً ، وكنت على يقين كبير ، بأن أية خطوة خارج

البيت للبحث عن وظيفة تساعدني في ظروفي هي خطوة بائسة وتعسة ، ومحض عبث ، وقلت في نفسي إن العمل في مكتبة داوود يكفيني الآن ، لكنني لست بليداً لأنني أبارك ساعاتي ، وأتلو عليها أغنياتي ، أشعلت الموسيقى وبدأت في عمل أشياء كثيرة ، نظفت غرفتي وراجعت أوراقاً قديمة ، لكنه يتعذر عليّ ألا أكون متعباً وقانطا ومكسورا ، رغم أني أستطيع إقناع نفسي بجدوى أي عمل أقوم به ، وكنت أهجس بأشياء كثيرة ، كتبت وقرأت وأشعلت نار التاريخ ، للغة المخنوقة الأنفاس ، ذررت رماد الأشياء ، فالتمعت شهباً وأقماراً ، بينما تصدح موسيقى ، وكنت أبدو كما لو أنني أريد أن أجلد نفسي بالتعب ، عقاب ذاتي موصول صحيح وعميق حتى النسيان ، كانت إيقاعات الموسيقى ترتفع عذبة وغامضة ، أطرافي تتركان كل شيء تتمايلان ببطء ، صوتي بنبرة واهنة يرتفع قليلاً مع إيقاعات الموسيقى ، رفعت الصوت متجاوباً مع هذه الحالة الجديدة ، وسرعان ما بدأ جسدي وأطرافي ، كما لو أنها ترقص ، رأيت ذراعاي تتمايلان ، تعانقان فضاء الغرفة بنزق ، وأطراف أقدامي في حركات دائرية موصولة . وكنت كلما أتم دورة ، أبدأ في أخرى ، مقنعاً نفسي أنه ربما حان الوقت ، بعد هذا الانتظار للرقص ، وارتفعت حدة كل شيء ، بدأ جسدي ينزف العرق ، وبدأت أشعر بنشوة الفعل ، أذرع فراغات الغرفة ، أتمايل بشكل جاد ، وصريح ، مع إيقاعات موسيقية غامضة

وأصابع قدمي تلامس بخفة ورشاقة أرضية الغرفة ، وجسدي يتثنى بفرح جاد ، شعرت أنني أريد أن أعيش هكذا ، متمتعاً بهذا الوقت ببذخ شديد ، حتى سمعت صوتاً في الخارج ، ولكنني ، في ذروة المجد ، أتظاهر كما لو أني لا أسمع سوى الموسيقى ، الموسيقى فقط ، توقفت وارتحت أغني في ظلام خفيف ، دون بهجة ، ومصحوبا بخوف شفيف ، لم أكن أرغب التخلص من تلك الحالة الموسيقية ، لذلك قلت لنادية ، أريد أن أحبك هكذا بكل بساطة ، بكلمات لم تقل حتى الآن ، وبنار لم تشتعل حتى الآن ، وبرسالة لم تصل من أحد ، ثم إنني غنيّت بكلمات غامضة ، الظلام يلف الغرفة ، لا يهم إذا كان الظلام ظلامي أو ظلام الأغنية أو ظلام الخوف القديم الذي يربض في صدري ، لكن الحجرة ، هكذا بلا مقدمات ، سقطت بجدرانها الورقية على كلمات الأغنية ، في مشهد سينمائي مؤثر ، وأنا استسلمت لنوم يقظ ، موت مبكر ، محروماً من كل ذكرياتي ، ومنذ ذلك الوقت تركت عادة الغناء في الظلام ، قررت الإفصاح عن مشاعري دائماً في الهواء الطلق ، أمام الناس ، حتى لا أموت مرة أخرى ميتة مجانية ، بلا جماهير ، فلماذا أحبس أنفاسي وخوفي في صدري ، وأنا أشعر أن الكرة الأرضية بكامل تفاصيلها ، تسكن في صدري .

راعي الأغنام

بعد هذا التمرين شعرت أنني ربما جاهز لغفوة طيبة ، كنت في المنطقة الوسطى بين يقظة ، وغفوة مستعصية ، حين رأيت أنني وسط ساحة كبيرة معروضا للبيع بالمزاد ، كنت وسط الزحام أفتش عن عسكري يحميني من جشع هؤلاء التجار ، حتى وجدته أخيرا وناديت عليه ، لكن العسكري تجاهلني ، كأنه لم يسمعني ولم يرني ، قلت في نفسي : ربما أن أحد هؤلاء التجار من معارفه ، انتظرت أن يسرح أحد هؤلاء الذين يقبضون على يدي ، لكي أطلق ساقي للريح ، انتظرت طويلا لكن دون فائدة ، حتى استجاب العسكري ورأيته يقترب من المكان ، وكانت الصدمة ، حين سألهم : بكم هذا الآدمي ، وهو يشير عليّ ، فقررت أن أمثل دور الحمل الوديع حتى يثقوا بي ، أغمضت عيني كأنني نائم ، وفجأة استيقظت فوجدت نفسي في مكان والظلام العميق يحيط بي ، قلت أين أنا ، رفعت رأسي ، وحين رأيت بصعوبة باب الحمام المفتوح ، ويخرج منه

نور ضـــئـــيل ، تذكــرت أين أنا ، في هذه اللحظة أظن أنني اقتربت من النوم ، غفوت غفوة لذيذة ، وأنا ربما كنت أهجس بذكرى قديمة ، كنا خرجنا بصحبة الأهل إلى البراري القريبة ، غــرب الرياض في طريق مكة ، رأيت شــابا يرعى الغنم في الصحراء ، مشيت خلفه من البعد ، أرقب الشاب وأرقب قطيعه بدقة ، ظللت أرقبه وهو متجه للنزول بالقطيع إلى واد صغير مليء بالعشب والشجر ، استرحت على صخرة واطئة ، وفي لحظة غامضة رأيت أن من يرعى الغنم هو أنا وليس أحدا سواي ، صدّقت الفكرة وشعرت أنها تجربة حقيقية أعيشها ، وجدت الفكرة تتلبسني واقعا غير مشكوك فيه ، فنزلت بالقطيع إلى الوادي ، وظللت هناك قرابة الساعة شبه نائم ، حتى شـــبـــعت الأغنام وأوشكت الشـــمس على الغـــروب ، قلت لأغنامي : حان وقت العودة ، علينا من الآن أن نسعى للخروج من هذا الوادي اللعين ، الذي يصدر أصواتا غريبة ، كنت متعبا جدا بسبب قوة أشعة الشمس ، لكنني تحاملت على نفسي ، توجــهت إلى مــؤخــرة القطيع ، وبدأت أدفع الأغنام للخــروج والصعود إلى أعلى ، إلى الصحراء الواسعة ، بدأت الأمور تسير كما أريد ، وتوجه الحشد الحيواني الرائع نحو منصة الخروج ، وهو منحدر يشبه البوابة ، وبدأت الحيوانات وبالذات الخراف والشياه تصعد فعلا إلى الأعلى في منظر مهيب ومبهج ونبيل ، بينمـا كـانت فـئـة التـيـوس والماعـز تقـوم في الطريق البطيء

للصعود ، بحركات مشاغبة ورقص ليس لها داع ، ولم أكن في حالة تسمح بتقبلها ، وفي واقع الأمر ، أرى أن الشبع أصابها بنشوة جعلها تأتي بحركات تشبه الرقص ، وهي في نهاية الأمر حيوانات ، علينا أن نصبر عليها قليلا ، هكذا حدثت نفسي ، وأنا أحاول قيادتها برفق نحو الأعلى ، لكن هذه الحركات غير المقبولة من التيوس بالذات ، أبطأت من عملية النفير ، وأفسدت خارطة الطريق ، للخروج الآمن من هذا الوادي المتخلف ، كانت التيوس والماعز تتقافز هنا وهناك أو تتناطح ، أو تصعد المرتفعات الصغيرة على جانبي الوادي ثم تنزل بحركات بهلوانية غريبة ، جعلتني أدعو الله لها بالشفاء من هذه الحالة الهستيرية المتخلفة ، فهذا ليس وقت المزاح والعبث ، حاولت تأديبها ولم أستطع ، ركضت وراءها لكي تلحق بالقطيع المؤدب من الخرفان والشياه ، لكنها كانت في ذروة الحالة الهستيرية ، وإمعانا في الأذى الذي سببوه لي ، رأيت تيسا صغيرا يصعد جبلا صغيرا ثم يجلس هناك في غار واسع على قوائمه الأربع ، كأنه يستعد لتصوير لقطة من فيلم ، في الوقت الذي كانت فيه بقية التيوس والماعز على وشك الهدوء خوفا من عصاي الطويلة ، وبدأت تأخذ طريق الخروج ، أخذت حصاة ورميت بها التيس الصغير ، فرأيته بكل سخافة وبرود يتأمل الحجارة بصمت ، قلت له انزل ولم يرد ، كان فقط ينظر في وجهي بلا اهتمام ، رميت عليه حصاة أخرى فاكتفى بمراقبة الحصاة وهي

تتدحرج جواره ، في هذه اللحظة كان حولي ماعز صغيرة تدور وتلعب ، فكرت أن أرسلها له لإخراجه من الغار ، فخشيت أن تعجبها الفكرة وتمكث معه هناك ، قلت لايوجد حل سوى أن أصعد إلى هذا المتمرد السخيف ، صعدت بصعوبة ، وصلت بعد تعب إلى الغار ، أمسكت أذن التيس بيدي اليمنى ، حرك التيس رأسه فانزلقت أذنه من بين أصابعي وفلتت ، ربما بسبب تعرق يدي ، مسحت يدي في ملابسي حتى أصبح كفي أكثر خشونة ، أمسكت أذنه اليسرى بيدي اليمنى من جديد ، حرك التيس رأسه بقوة ، ثم اداره للخلف بعنف ، لكن كفي ظلت متشبثة بالأذن فاضطر التيس للوقوف على قوائمه حتى لا تلتوي رقبته ، وقف ونزل معي وهو صاغر ، وفي ذروة هذا النجاح العظيم ، انتبهت فوجدت نفسي مستلقياً على الصخرة ، والناس يبحثون عني في البراري القريبة .

وخزات سرد خفيفة

صحوت متأخرا ، ربما بعد المغرب ، رميت تعب السهر والقلق ، لا أعرف الوقت الآن ، كنت أشعر بمزيج البهجة والحزن مع حالة موسيقية عالية وجدت أنها تملأ روحي ، ومعها كلمات أعرفها تشبه وخزات سرد خفيفة ، وكنت أشعر بأرواح حولي تتمشى في زماني ومكاني ، لكني أجّلتُ أحزاني وذاكرتي ، أجّلت غيضي ، وربيت شجني مثل أرنب صغير ، أجّلته وربّيته ، صار شجني حزنا عميقا ، وصار غيضي غصنا طويلا له ظل عارم ، يغطي فناء بيتي ، صارت أشجاني وقهري مثل ريح خجولة ، لكنها غاضبة ، تريد أن تدور ، مثل امرأة تبحث عن حب مفقود .

أجّلتُ شجني صغيرا وكتمته كبيرا مثل غيض ، مثل حلم ، كتمته ومزجت معه بهجة سرقتها من رصيف مجهول وخرجت في وقت ممتع ، كانت فيه شوارع حارتنا هادئة وقليلة النور ، كنت أمشي على رصيف الشارع الصغير ، ذاهبا إلى المخبز

القـريب ، ثم إلى بقـال جـواره يبـيع سـجـائري ، وجـدت على الرصيف المظلم بهجة صغيرة ضالة ، كانت مثل قطة هائمة أو مثل فكرة قصة ضائعة ، التقطتها فأصابتني بنشوة عالية ، جعلتني أتحدث مع نفسي مثل فاقد .

سألت صديقي الخباز عن أحواله ، قال : سأبيع المخبز لهذا الأفغاني الذي أمامك ، وأغادر إلى وطني ، كان علي خالد ، يمسح عرق جبينه بفوطته الحمراء القديمة ، وكان يحكي لي عن أولاده ، الذين يعيثون بؤسا وخرابا في شوارع وطنه ، وأنه يريد أن يلمهم في قبر واحد .

قلت له : ونحن أيضا نعيث في فوضى شوارعنا وحياتنا ، نحن جميعا نعيث حزنا وخرابا وغيضا وبؤسا ، نعاني الوقت المهدور ، ونعاني بهجات مسروقة أو محرمة ، في شوارع أهدرت أحلامنا .

ودعت علي وأخذت الخبز ، ثم ملت على البقال ، أخذت سجائر لليوم والغد وما بعد الغد ، فربما تمنعني بهجتي الصغيرة من الخروج في الأيام القادمة ، قال لي عامل البقال الباكستاني أجمل الزمان ، هل تريد شيئا من البطحاء ، قلت مثل ماذا يا أجمل ، قال : أي شيء ، ثم غمز لي غمزه خفيفة ، كانت مثل بهجتي الضالة أو المسروقة ، قلت : شكرا يا أجمل الزمان ، ودعته ومشيت إلى بيتي ، وصلت سالما معافى ، ومصحوبا بتلك البهجة الصغيرة التي وجدتها في طريقي على الرصيف

المظلم ، كانت مثل قطة هائمة أو مثل فكرة قصة ضائعة .

في البيت مكثت مع بهجتي الصغيرة وقتا ثمينا ، ثم كتبت فصلا من قصة طويلة غامضة ومظلمة ورطبة ، عن أرواح قريبة ميتة ، أراها وهي تطل على روحي ثم تقترب وتتمشى في زماني ومكاني ، وعن الإنسان الميت الذي في داخلي ، وعن إنسان آخر فوضوي وغاضب يريد أن ينهض من مكانه ، كنت أقطر عرقا ، وكنت أشعر بتناقض عميق يهز وجداني ، فهل وأنا الميت ، الذي أصابته الصدمات والصفعات باليأس ، مازلت أنا ، أم أنني الغاضب الذي يريد أن يخرج كائنا ثالثا سواهما .

توقفت ، قلت في نفسي وأنا أنظر في جدار بارد أمامي ، لو كنت في مدينة أخرى ، وخرجت إلى البقال والخباز مشيا على الأقدام ، ربما صادفت على الطريق رصيفا أخضر أو وجهاً حسناً أو دار سينما ، طردت هذا الهاجس الذي أصابني بالملل ، وأنا أشعر أن قلبي صار مثل قطة ضالة ، تبكي في زاوية لها رائحة قديمة ، قلت وأنا الميت والمهزوم ، إن وقتي صار عادة خاملة ، وحياتي صارت مثل كيس خبز يابس ، أو تمر قديم ، تلمسه فينفجر في وجهك غباره .

سرحت في مكاني ، وكنت أشعر أنني أنام في برية واسعة بعيدة ، وحولي منازل طين قديمة واطئة تنبعث منها موسيقى قديمة لها رائحة أعرفها ، وفيها مشاعر أكاد ألمسها ، من وحي قصائد شعر جاهلي ، أو ضحكات سكارى

متخلفين ، وأحيانا أشعر بهم قد بدأوا حروبهم ، فتطأ نومي حوافر خيولهم الراكضة بلا دليل . وفي الصباح أجد روحي مضروبة ، وذاكرتي مثقوبة ، ومزاجي فاسداً ، وحلقي محتقناً ، وجسمي حاراً . قلت أرمم ذاتي المضروبة والموبوءة والمحتقنة ، مثلما رممت ، على مدى عقود ، وقتي الذي صار مثل عادة خاملة ، وحياتي التي صارت مثل كيس الخبز .

سأرمم وقتي المضروب بوخزة من ماء السماء ، وقبلها بتفاحة ، ثم بحمام بارد ، أنفض فيه كيس التمر المغبر ، مشاريع مؤقتة للترميم ، قد تبدأ الآن ، لكن قد يمتد التأجيل لحين يخف ثقل أطرافي ، ويعود لذاكرتي جزء من روحها المفقودة ، غبت في خدر لذيذ ، وأنا أشعر بتنمل أطرافي ، كنت أتحدث بصوت عال مع جاري ، قلت له أعذر انقطاعي عنك يا صديقي ، فأنا أنام باكرا وأصحو باكرا ، لكن فجأة رأيت بجانبي بنتاً تتحدث مع صديقتها ربما ، كانت بجانبي ، وكانت تحرك يديها أحيانا ، وأنا أواصل حديثي مع جار صامت ، وفي لحظة غريبة لمست يدها جسدي ، فتحركت أشياء متلذذة بتلك الحركة العفوية ، بحثت عن جاري لم أجده ، التفت فلم أجدها أيضا ، ولهذا قررت أن أبحث عنها ، أذكر أني رأيتها في سوق غير واضح المعالم ، ذات خميس ، ربما أتذكر المحل الذي تذهب له عادة ، سأنتظرها هناك ، سأقول لها : أنت حبيبتي الغائبة ، سأشتكي لها وأقول إنني حزين جدا وإنني كل يوم أفقد شيئا

من ذاتي ، وأفقد احترامي لذاتي الصامتة ، سأقول إني أفتقدك دائما ، وإنني أتذكر لقاءات قديمة عابرة مختلسة ، وأذكر ضحكتك العفوية التي تنطلق ببراءة وسحر ، سأعترف لها أن روحها الدافئة ضغطت على أرواحنا ، ضغطت كفان ناعمتان على وجنتين صحراويتين ، فتفجر الرأس ماءً وأعشاباً ونخلاً وذكرياتٍ ولهواً ودوداً صغيراً ، وسأقول إنني ما زلت أراك تقفين هناك بعيدة عن العيون ، عندما التقينا وتحدثنا وقلت لك إنك لست المرأة الوحيدة في هذا العالم التي تبكي كثيراً ، وتنام قليلاً ، لست المرأة الوحيدة الجميلة ، التي لا تمشط شعرها ولا تقلم أظافرها ، ولا تستمع إلى الموسيقى .

شعرة الرأس الملعونة

بدأت مشكلة نادية تتكشف ، حين التقينا في مطعم العليا ، اقتربت مني في لحظة غريبة ، اقتربت فشعرت بدفء جسدها يدنو مني ، اقتربت حتى شعرت أنني على وشك أن ألمس أو أعانق أنفاسها اللذيذة ، لكنها في لحظة خاطفة ، مدت يدها ، وقطعت شعرة من رأسي ، ثم وضعتها في فمها ، كانت لحظة غامضة ومخيفة بالنسبة لي ، حاولت أن أضحك باعتبار أنها تمزح ، لكن حين ابتلعت نادية قطعة الشعر الصغيرة ، صدمتني الحالة ، سألتها بجدية وخوف عن سبب ما تفعله ، قالت : حتى لا أفقدك ، سألتها كيف ، قالت : حتى تبقى لي إلى الأبد ، كانت صدمة ، لكنني لم ألحظ عليها شيئا ملفتا قبل ذلك سوى إعلاناتها المتكررة أنها متضايقة ، كانت تشتكي من أشياء كثيرة ، وكنت أحاول أن أبسط الأمور لها ، مثل كل الحالات التي تبدو طبيعية ، كانت مرحة تبهج المكان ، وكانت حيوية تنعش الوقت ، وكنت سعيدا بها ، كنت أراها موهوبة لم

تجد الفرصة ، لاحظت أنها تحب الموسيقى والأفلام وتجيد اللغة الإنكليزية ، لكنها محبطة ولم تكن مرتبة في حياتها ، ولهذا غرقنا سوية في أحلام اليقظة ، والبيت الحلم ، ونسينا أمراضنا المزمنة التي لم نتعرف عليها ، لم أتوقع أن تضطرني الظروف بعد ذلك لمعرفة كل أنواع الحبوب المهدئة الموجودة في الصيدليات ، ولم أتوقع أن أكون صديقا للصيدليات التي عرفت كل أسمائها في شوارع الرياض ، لم أتوقع في يوم من الأيام أن تكون أحلام اليقظة هي البديل الحي لواقع ممل ومريض بالفوضى والتمثيل والفساد والحبوب المهدئة .

قالت : كل البنات يستخدمن الحبوب المهدئة . .

سألتها : كل البنات؟

قالت : أغلبهن .

قلت : البعض؟

قالت : صحيح .

قلت : لماذا؟

قالت : لا أعرف .

وأنا ، سكت قليلاً أفكر في هذا .

قالت بعد قليل وهي تبتسم : الناس تعبانة .

قلت : من ماذا؟

قالت : من الملل والفوضى .

سألتها : الفوضى .

ضحكت وقالت : قرأت هذا في تويتر .

قلت . . وماذا قرأت أيضا في تويتر؟

قالت : إحدى صديقاتي كتبت : بدلا من زراعتكم للأحقاد والكراهية ازرعوا حشيشاً يبسطنا .

قلت لها : لقطة مضحكة .

وضحكنا جميعا .

فكرت بجدية في الأمر وتذكرت أقارب وأصدقاء لي اختفوا فجأة ، وبعد سنوات تأتي أخبار متقطعة عنهم ، اكتئاب ، فصام ، وسواس قهري ، تشدد ديني ، إدمان كحول أو مخدرات ، وتذكرت شكاوى ، من أن مستشفيات الصحة النفسية قليلة ولا تواكب زبائنها الذين تضاعفوا عشرات المرات في السنوات الأخيرة .

بدأت أتفهم كلامها ، وبدأت هواجس كثيرة تعمل في رأسي ، هل أنا مريض أيضا وأنا لا أعرف ، ما حكاية الدواء المسكن للسعال الذي أشربه لكي أنام ، وما معنى هذه العصبية والعنصرية والتخلف التي تلف حواراتنا وعلاقاتنا وحياتنا .

نادية ظلت مثل شريط سينمائي سريع ، مع بعض اللقطات العميقة التي تحفظها الذاكرة ، لقطات أحيانا بسيطة وعادية ، لكن الذاكرة تحفظها سنوات طويلة ، ولقطات كنا نظن أنها مهمة جدا ، تسقط من الذاكرة وتغيب شيئا فشيئا ، حتى تتلاشى ، مواقف مهمة لم يبق منها في الذاكرة شيء ، بينما

تظل المواقف البسيطة والعادية ، التي التصقت بشكل غريب في الذاكرة سنوات طويلة ، حين تحولت إلى حياة أخرى تسير معنا إلى الأمام ، فما كان هامشيا في حياتنا تحول إلى شيء حقيقي ومهم في الذاكرة ، وأثبت الزمن أنه الحقيقي والمهم ، وما كنا نراه مهما وضخما وجوهريا في حياتنا ، تلاشى واختفى من شاشة الذاكرة ، وبالكاد نستطيع تذكره ، حكايات بلا رابط مهم سوى محاولة الاقتراب من العادي والمألوف في حياتنا .

عـــرب

في مساء اليوم التالي كنت متعبا ، ذهبت إلى مقهى همس العيون ، أخذت طاولة على الرصيف ، وسط الحديقة الصغيرة ، طلبت شاي النعناع وصحن بطاطس ، كان المقهى مزدحماً على غير العادة بالشباب ، بسبب مبارة نهائي في الدوري الإيطالي ، في هذه اللحظة وصل داوود ، وجلس على الكرسي المقابل لي ، كانت هيئته مضحكة ، يلبس ثوبا جديدا وغترة جديدة ، وأنا كنت خائفا أن يكون عرف بحكاية الحبوب في ملعب العليا .

قلت له مشجعا : ما هذه الحركات الجميلة يا أستاذ داوود .

قال لي : تعال معي في مشوار . . حضور زواج عائلي مختصر .

قلت له : والله إن المقهى أفضل .

قال : تذهب معي نصف ساعة فقط .

وأضاف متحمسا : الزواج قريب في الحارة وأنا ملزم أن أحضر .

قلت له : حاضر أيها الملك الجاهلي .

شارك داوود معي في القضاء على صحن البطاطس ، ثم انطلقنا في سيارته إلى بيت الزواج ، وصلنا المكان ، كان عبارة عن فيلا صغيرة وزواج عائلي لأقارب من بعيد ، استقبلنا الشباب عند المدخل ، ثم دخلنا المجلس ، سلمنا على كبار السن ثم خرجنا وجلسنا في المجلس الثاني الصغير مع شباب يعرفهم داوود ، انتظرنا قليلا حتى نادوا على العشاء ، ذهبنا جميعا إلى صالة الأكل ، جلست بجوار داوود ، وحين بدأنا تناول العشاء ، رأى داوود قريبه وجاره ، يجلس بجانبنا على المائدة ، وهنا بدأت فصول المسرحية ، حيث استمتعت في هذه الأمسية البليدة بالحوار المضحك بين دوواد وجارهم .

وكان هذا الجار خفيف الدم ، قد بدأ ، بعد التحية بالقول لداوود وهو يبتسم :

والدك ياداوود كان رجلا طيبا لايترك الصلاة .

قال داوود : والمعنى . . .

قال الجار وهو يواصل الابتسام : كيف . . والمعنى . .

قال داوود : الزبدة يعني .

في هذه اللحظة أنا ضحكت . . .

التفت إليّ الجار التفاتة سريعة حين ضحكت ، ثم عاد إلى داوود وهو ما زال يبتسم وقال له : لا نراك في المسجد يا ولدي .

ثم أكمل : وأحيانا أسمع معازف تخرج من غرفتك المجاورة لمنزلي .

قال داوود باستغراب : معازف .

قال الجار : نعم . . هل تريد أن تعيدنا إلى حياة الجاهلية؟

قال داوود : لا زلنا في الجاهلية ياصديقي .

قال الجار : قل يا أخي . . ولا تقل يا صديقي . . هداك الله .

قال له داوود : أنا أيضا لا أراك في المسجد .

ضحك الجار وقال : أنا موجود ولا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد .

قال داوود : المسجد ليس جاراً لنا بيننا وبينه شوارع عريضة وأنا أعمل في مكتبة الوالد .

قال الجار بضحكة جميلة هذه المرة : وهذا أعظم للثواب . . يا أبا جهل .

قال داوود وهو يضحك : هداك الله ياشيخ .

بعد قليل سأل الجار داوود بهمس موح : سمعت أنك تريد أن تبيع بيتكم . . أقصد بيت الوالد؟

قال داوود : غير صحيح .

قال الجار : كيف غير صحيح وأنت كنت عند عبدالحق تعرض بيتكم للبيع؟

قال داوود : لا أعرف عبدالحق ولم أعرض البيت للبيع .

قال الجار : عبدالحق قال لي إنك كنت في مكتبه عصر أمس .

قال داوود : عبدالحق .

قال الجار : أمس أنت كنت في مكتبهم العقاري العيون الناعسة المجاور لمقهى همس العيون .

قال داوود : هل تراقبني أنت؟

قال الجار : لماذا أراقبك يا أخي؟

قال داوود : لكن لم أعرض البيت للبيع ، فقط سألت عن أسعار البيوت .

ضحك الجار وقال : نعم هذا مكتب حبيبنا عبدالحق إذا لم تكن تعرف .

قال داوود وهو يضحك : العيون الناعسة هذا ، يصلح اسما لمحل بروستد وليس مكتب عقارات .

انطلقت ضحكة الجار الشيخ مجلجلة . .

وقال : سأخبر عبدالحق باقتراحك .

وأضاف الجار : فكر في أمر بيع البيت ، وقلل من المعازف .

قال داوود : حاضر يا شيخ عبدالحق .

ثم نهض الجار مودعا . . وهو يبتسم .

قال لي داوود بهمس : هذا الجار دمه خفيف ، لكن أحيانا يكون مملاً وتافهاً .

وأكمل داوود : سمعت أنه أقنع بعض صغار الحارة

بالذهاب إلى الجهاد من أجل الحور العين .

ضحكت بجد في تلك اللحظة . .

قال لي داوود : لاتضحك . . هذه جريمة .

قلت وأنا محرج : فعلا . .

خرجنا من بيت الزواج ، ركبنا سيارة داوود ، واتجهنا إلى المقهى ، كانت فرصة لأتحدث مع داوود عن حكاية الملك الجاهلي يتقاعد ، سألته هل يرغب في طباعتها ، ضحك داوود وقال : هذه محاولة ليست للطبع وأريد منكم أن تقرأوا النص وتضيفوا عليه ماتشاءون لكن دون مبالغات أو تكلف .

في المقهى وجدنا سعود وياسر ، جلسنا معهما ، واقترح داوود أن نكمل الجلسة في بيته ، فانطلقنا كل بسيارته ، دخلنا الملحق وجلسنا فأخرج داوود زجاجة قديمة .

قال سعود لداوود : ملابس جديدة وروائح عود أصلي .

قال داوود : أنا دائما هكذا يا أبا جهل .

قال ياسر : إذا تزوج داوود سأذبح خروفاً .

قال داوود : بخصوص موضوع الزواج ، كان لي موقف كوميدي من سنوات طويلة ، كنت أنا وابنة عمتي في عمر واحد ، وكنا نتنافس في درجات الاختبارات المدرسية في المرحلة المتوسطة ، في تلك اللحظة التي كبرت فيها ، ذات صيف حين نجحنا من الصف الثاني إلى الثالث المتوسط ، قمنا بزيارة بيت عمتي بصحبة والدتنا ، كنت فرحا بالنجاح ، لكن

الصدمة حين فتح لنا زوج عمتي ، رحب بنا عند باب البيت ، أدخل والدتي وأخواتي ، ثم التفت لي وهو يضحك وقال لي : لقد كبرت يا ولدي ، لا تدخل مع والدتك للبيت . . البيت فيه بنات ، تعال أنا وأنت إلى مجلس الرجال ، كنت محرجا من الموقف ، مشيت خلفه ، دخلنا البيت ، ثم دخلنا المجلس ، جلست على الكنب ، بوجه أحمر خجول ، جلس معي زوج عمتي قليلا ، ثم تركني ودخل البيت ، ويكمل داوود : كنت أسمع أصواتهم تصلني من الداخل ، يرحبون ببعض ، وسمعتهم يسألون عني فشعرت في داخلي بسعادة كبيرة لا يمكن وصفها ، وحين سمعت والدتي تقول لهم إنني في المجلس ، ابتسمت وأنا أنظر إلى الجدار الصامت أمامي ، كنت أشعر بالسعادة لأنني كبرت ، وبالخجل من الموقف ، حيث إنني بدأت أشعر في تلك اللحظة ، أنني منفي في هذا المجلس الواسع وحيدا ، لهذا خرجت بهدوء من المجلس ، فتحت الباب وخرجت إلى الشارع فشعرت بالحرية تملأ روحي ، وكلما تذكرت هذا المقطع في حياتي أضحك بعمق ، ويكمل : بعد ذلك حفظت مقاطع جميلة من قصيدة ابن زيدون : أضحى التنائي بديلا من تدانينا ، ثم قرأ لنا مقاطع من القصيدة .

وهنا سأل ياسر داوود عن معنى كلمة الجاهلية ، ومن أين جاءت كلمة عرب ، وما هي أجمل حكايات التراث التي قرأها ، قال داوود : بعض حكايات ألف ليلة وليلة والمواقف

والمخاطبات للنفري ، وقصة حي بن يقظان وقصة ابن زيدون وولادة بنت المستكفي ، وكتاب ترجمان الأشواق لابن عربي ، وحكاية مقتل ملك العرب في الجاهلية عمرو بن كلثوم على يد عمرو بن هند ، هذه من أفضل ما قرأت .

وعن أصل كلمة عرب قال داوود : إن الأصل مختلف عليه ، وهناك الكثير من الاراء حول الموضوع ، لكن عدداً كبيراً من العلماء يعتقد أن كلمة «عرب» مشتقة من أصل سامي قديم ، مشتقة من الكلمات العبرية : «أرابا» ، وتعني الأرض الداكنة ، أي المغطاة بالكلأ ، ويُشير هذا المعنى إلى حالة اجتماعية قائمة على التنقل والترحال وراء موارد العشب . «إرب» ، ومعناها الحريّة وعدم الخضوع لنظام ما ، أو «عابار» ، بمعنى التنقل من مكان إلى آخر ، عرابة ، بمعنى الصحراء ، حيث إن الساميين في الماضي كانوا يتحدثون لغة واحدة ، ثم انقسمت إلى عدة لغات منها العربية والعبرية ، لكن مع ذلك مازالت تتشابه بعضها مع بعض ، وخير مثال على ذلك التشابه الواضح ما بين اللغة العربية والعبرية لغة اليهود الحالية .

وقال داوود : وممكن تكون عرب منسوبة إلى يعرب بن قحطان وهو أول من سجع بالعربية ، والعربية منسوبة إليه وهي مشتقة من اسمه .

سأل ياسر : لماذا لم تكتب الشعر؟

قال داوود ، أنا أستمتع وأتسلى ولم آخذ الموضوع بجد ،

لهذا لم أكتب سوى قصص قليلة جداً .

قال سعود : هل تذكر شيئاً؟

قال داوود : العام الماضي كنا في قريتنا نحضر زواجاً عائلياً ، وفي الليلة الثانية بعد الزواج ، خرجنا للبر المجاور لبيوت أعمامي مشيا على الأقدام ، في رحلة عائلية مسائية ، وضعنا فرشة كبيرة وقضينا الليل في البر ، كان الحديث في تلك الفترة عن التشدد والإرهاب وأمريكا وإسرائيل ، حيث كانوا يضربون بشدة في العالم العربي ، وأنا كنت أحاول ترتيب الأحداث في ذهني أو أقول رؤية ، ولم أكن أقصد كتابة قصة .

وأكمل أبو داوود : قلت لهم : إنه بعد احتلال الحرم من المتشددين دينيا ، انغلق المجتمع على ذاته ، في صندوق أسود ، عظيم الأسرار ، وغرقت المرأة في سواد هائل ، لا نعرف كيف كانت تتنفس من خلفه ، وصارت الموسيقى حراما ، يتم الاستماع إليها في البراري خلسة ، أو في غرف مغلقة ، وبعد غزو الكويت ، انفتح جزء من الصندوق ، فشممنا رائحة موسيقى خفيفة ، تنبعث من أبواب مواربة لبيوتهم الحزينة ، وخرجت المرأة من بعض عتمتها ، مكسورة الروح ، فارتفعت عصا الوعاظ عالية ، تطاردنا في كل مكان ، وبعد أحداث سبتمبر ، انكسر باب الصندوق الأسود ، فتفرق الجمع ، هربت امرأتنا من بؤسه ، وهرب الواعظ إلى الإرهاب ، وبدأت أشياء أخرى تتحرك ، بدأت بوادر انطلاق تحرك الشعب العربي ضد

الحكام الطغاة والفاسدين مع مواقع التواصل الاجتماعي الجديدة ، على إيقاع موسيقى حرة ، فانهمرت الأسرار الرائعة ، لأرواحنا الجميلة ، التائقة للجمال والحرية والمرأة والفن والسفر والإبداع ، الآن كل شيء جميل ينهمر ، في عالمنا الكبير هذا ، سوى حرية الرأي .

في هذه الفترة كان داوود قد أكمل مقاطع طويلة من حكاية جاهلية أو رواية ، أسماها : الملك الجاهلي يتقاعد ، وقرأ علينا بعض فصولها ، فرحت بها والشباب ضحكوا وعلقوا على العنوان وعلى بعض المقاطع ، وياسر أضاف بعض الأفكار للفصل الرئيسي ، كان الحوار طويلا حول هذه الحكاية ، وقدم داوود لنا مقترحات ثمينة لإكمال فصولها وركز على أهمية أن تكون الإضافات بلا تكلف أو مبالغات ، قال له تركي : لماذا لا ننشر هذه القصة في صفحتك فيس بوك ، قال له داوود : أنشروها في أي مكان ، رغم أنها لم تكتمل ، فهي نص مفتوح على الحياة ، يمكن الإضافة له في أي وقت .

وفي هذه اللحظة ، نهض تركي ، جلس على مكتب داوود ، فتح صفحته على الفيس بوك ، ونشر فصولاً من روايتنا ، أو رواية داوود أبو سليمان ، الملك الجاهلي يتقاعد ، بعد ذلك تفرق الجمع ، في منتصف الليل ، بعد سهرة تراثية حداثية جميلة .

فصول من رواية الملك الجاهلي يتقاعد

(١)

ينام الملك الجاهلي النجدي الكِندي ، الحارث بن عمرو ، قبل منتصف الليل ، حين تحط النجمة اللامعة رحالها فوق رأسه الأصلع تماما ، يصحو في الضحى ، حيث يشرب على الريق دورق الماء الدافيء ممزوجا بالعسل والثوم ، ثم تفاحة ، ثم يدخل على كأس الخمر فورا ، لكي يعرف كيف يدير مملكة كندة قي نجد .

في السابق ، قبل أن يكون ملكا ، كان صاحب الجسد القصير والسمين والعينين الصغيرتين مثل حبتي زيتون ، يتناول دورق الخمر في الصباح مباشرة على الريق ، لكي يعرف كيف يدير تجارته وكيف يصطاد النساء ، لكن زوجته سهيلة بنت ماء السماء ، بعد أن أصبح ملكا ، درّبته على أن يأكل شيئا قبل الدورق الملعون ، الذي حوّله في ما بعد إلى ما يشبه كيس تمر قديم ويابس ، أو إلى حيوان مريض أو حزين لا يتحرك كثيرا .

ورث ملك كندة في نجد الحارث بن عمرو ، عن والده عمرو

بن حجر ، مملكة كندة في نجد ، وهي في الأصل إمارة تابعة لكندة الملوك في جنوب جزيرة العرب ، ورث أيضا عن والده القوة والشجاعة والتسلط . كان في مملكة كندة ساحة كبيرة تدعى ساحة حجر ، في جانب منها تقع قصور الحكومة ، وفي جانب آخر سوق لتجارة الخضار والفواكه والمواشي والخمور والسجاد الفارسي ، وكانت يحيط بها بيوت حجرية أو طينية لكبار الأمراء والتجار ، وفي خلف هذه البيوت تجد مخيمات كندة ، إذ أقام سكانها منصات لسهراتهم واحتفالاتهم ولقراءة أشعارهم ، بينما ظلت الساحة مكانا يرتاده الجميع للتسوق والترفيه والتواصل بين الناس ، حيث يوجد في أحد أركان الساحة الواسعة المشهورة ، حانة ملاصقة لمطعم شواء في الهواء الطلق .

يحضر كل صباح إلى ديوان الملك ، شقيقه عروة بن عمرو ، الحرامي سابقاً ، ومعه أخبار المملكة ، والأخبار الواردة من الممالك المجاورة ، لكي يضع شقيقه الملك الحارث بن عمرو ، في صورة ما يحدث كل يوم ، الرقع مكتوب عليها ما تم إنجازه وما هو على قيد التنفيذ ، وفيها أيضا شطحات خيال قاطع الطرق سابقا ، المدعو عروة ، حيث يحاول تأليب الملك دائما على الشاعرة خولة بنت ربيعة ووالدها ، خصوصا بعد أن فسخت خولة خطوبتها منه ، حين عرفت ، أن الحرامي القديم لازال يقبع في داخله ولم يستطع التخلص منه ، كما لم يستطع التخلص

من روحه العدائية تجاه الناس ، لهذا كان عروة يحاول دائما الاستئثار بالقرارات المهمة ، من أجل أن يرفع غلته من السرقات ، خصوصا بعد أن أعطاه الملك صلاحية واسعة وأوكله بالعمل ومتابعة شؤون المملكة ، ولهذا ، ومنذ ذلك القرار ، تحول إلى أكبر تاجر مواش في سوق كندة نجد .

(٢)

كان ملك كندة الحارث بن عمرو ، قد بلغ الستين من عمره ، حين لاحظ أن مملكته الهادئة قد بدأت تهتز داخليا وخارجيا ، ولم يكن يظن أن هذا اليوم سوف يأتي بهذه السرعه ، فهذا القلق الذي بدأ يزوره ، والنوم الذي غادره إلا قليلا ، كلها علامات على أن هناك شيئاً ما يتحرك ضده شخصيا ، وضد مملكته التي يرى أنه أبدع في صنعها وتطويرها ، وتثبيت أركانها سنين طويلة ، هو ومن سبقه من أجداده الملوك السابقين لكندة الملوك في نجد ، بينما يرى أغلبية الشعب ، أنها مملكتهم وديار أجدادهم ، لكنه سلب خيراتها وأوقف نموها .

قبل سنوات قليلة كان الملك يرى الابتسامات تقابله في كل مكان ، وكذلك قصائد المديح ، لكن منذ أعوام قليلة ، بالذات بعد حادثة سجن والد الشاعرة خولة بنت ربيعة ، وبعد حادثة فساد مشروع السد ، بدأ الشعب يشعر بالغضب ، وبدأ الملك يشعر بالإرتباك وبالخوف .

عاشت مملكة كندة سنوات عامرة بالهدوء وبلا أحداث كبيرة ، تهدد الملك شخصيا أو تهدد مملكته ، عدا بعض المناوشات والحروب الصغيرة التي ردت بعض الغزوات أو النزوات ، التي كان تقوم بها بعض القبائل الصغيرة على مملكة كندة في نجد ، وربما أن موقع مملكة كندة في نجد ساعدها في صد الكثير من الغزوات ، حيث تقع في منطقة مرتفعة في هضبة نجد ، تحدها اليمامة جنوبا ووادي حنيفة شمالا ، الذي يعد أكبر واد أو نهر وسط نجد ، واد كبير تصب فيه مياه الأمطار طوال العام ، وتحيط به الرياض الخضراء من كل جانب .

ويقع بيت ملك كندة الحارث بن عمر في الركن الغربي الواسع من وادي حنيفة ، حيث يقع قصره العائلي المبني من الحجر والطين ، تحيط به الغابات والأشجار والحدائق من كل جانب ، بينما تقع على جوانب المكان ، مخيمات كبيرة وبيوت حجرية موزعة هنا وهناك ، لأقربائه وعائلاتهم ، بينما هناك على رأس الوادي يقع قصره الثاني المخصص للسهرات والنساء والشعر ، وهذا البيت الذي يقع في جبل مطل على الوادي ، يضم عشرين غرفة ، وسط باحة واسعة ، تتوسطها بئر وبركة ماء ، وخيمة كبيرة ، وخارج هذه الدار مساحة واسعة محاطة بأسوار الطين وضع فيها آلاف الروؤس من الإبل والأغنام .

عاش الملك على عرش كندة حوالي عشرين عاما ، كان شابا في الأربعين حين قبض على هذا الكرسي الذي تركه له

والده ، حجر بن عمرو ، كان شابا قويا وشجاعا ، صحيح أنه كان قصيرا وسمينا ، لكنه كان يتمتع بصحة جيدة وقوة بدنية عالية وذاكرة صافية لا تشوبها شائبة ، لكنه في السنوات الخمس الأخيرة كان قليل العمل والمتابعة ، بسبب زيادة وزنه وأمراضه ، حيث أوكل لمساعديه أصحاب الولاء ، إدارة شوؤن البلاد ، وحتى العلاقات بالقبائل الأخرى ، وتفرغ لزوجته سهيلة بنت ماء السماء ، يشرب معها ويسهر معها ويداعبها ويقول الشعر في جمالها الذي يكاد يغادرها ، لكن هذا لا يمنع الملك الجاهلي ، حين تنام سهيلة ، أن يقوم بغزوات سرية لجميلات مملكة كندة اللعوبات ، بنات الأغنياء والتجار أو الفقراء الصعاليك أو الوزراء الموالين ، وأيضا من زائرات وضيفات مملكة كندة ، حيث يواعدهن في قصره السري ، الذي لايعرف عنه سوى شقيقه عروة ، ينتظرن إطلالته في القصر الذي أعده لهذا الغرض ، يسهر معهن ويحقق أغراضه ، ثم يعود لينام بجوار زوجته قبل أن تصحو من النوم .

(٣)

في تلك الفترة بعد أن تعب الحارث بن عمرو ، وبعد أن لاحظ أن ملائكة الموت بدأوا باالاقتراب من روحه ، استدعى شقيقه عروة بن عمرو ، المشهور بقاطع الطريق وعينه وزيرا كبيرا وراعيا لشؤون مملكة كندة في نجد ، من أجل أن يحفظ الأمن ويتابع كل صغيرة وكبيرة ، وهكذا قرر التفرغ لملذاته وخليلاته وخموره المعتقة .

قال الملك الجاهلي في نفسه : أريد أن أستمتع قبل أن يهجم ملائكة الموت . . إنهم أنذال ويأتون دائما في الأوقات الخاطئة .

وقال لشقيقه قاطع الطريق عروة بن عمرو : أريد منك أن تبدع في معرفة كل ما يدور في بيوت مملكة كندة . . أريدك أن تعرف كل شيء وتراقبهم مثل ظلالهم .

قال قاطع الطريق وهو يتصنع الجدية : الناس تحبك يا مولاي ، وقد كنت أسجل كل إبداعاتي الفكرية على رقع

صغيرة خبأتها في خيمة زوجتي زهرة بنت جندح ، وسوف أخرجها بعد أن عينتني أميرا على كندة ، وأبدأ في تنفيذها فورا بمساعدة رجال كندة ، الذين تأكد لنا حبهم العظيم ، لأسرة الحارث بن عمرو الملكية .

قال الملك الجاهلي : وما هي إبداعاتك التي سوف تنفذها؟

قال عروة : سوف أنشيء ديوان التطوع ، يعمل به مئات من الشباب والشابات المخلصين لنا ، وسوف يقومون بزيارات إلى جميع بيوت الشعب لكي يصادقوهم ويساعدوهم في صيانة مزارعهم وأعمالهم ، وبالتالي نعرف كل أسرار كندة الصغيرة والكبيرة بهذه الأعمال التطوعية .

ضحك الملك فاهتز جسده السمين من شدة الضحك وقال بصوت عال : ما أجملك وما أخبثك يا شقيقي . . أيتها العروة السافلة .

قال عروة : تلميذك أيها الملك العظيم .

قال الملك : عليك حفظ الأمن وحفظ إيراد كندة ، هذان الموضوعان هما أهم عملين لديك .

قال عروة : حاضر يا مولاي .

قال الملك : علينا باليقظة لأن المخاطر بدأت تدور حولنا مثل رياح عاتية ، والسفلة والفقراء المعارضون بدأ عددهم يزداد ، وقصائدهم بدأت تفوح منها روائح الحقد .

قال عروة : سوف أكون عينك الساهرة في كل شبر من

مملكة كندة ، فهذا ملك آبائنا وأجدادنا ، وهذه مملكتنا وليست مملكة السفلة والمجانين ، وسوف نحفظها من كل حاقد .

قال الملك : عليك أن تزيد عدد الأعوان من الرجال لأن الشعب بدت عليه علامات السخط وعدم الولاء ، خصوصا بعد حادثة والد الشاعرة خولة بنت ربيعة ، ضعوا ضرائب على التجار وأصحاب المزارع الكبيرة والصغيرة من أجل جمع المال ، لبناء قوة ردع لمملكة كندة ، تصدُّ الأعداء في الخارج وفي الداخل ، كما أرجو إرسال بعض السفلة والمجانين والمدمنين إلى الاجتماعات التي تدور في بيت الشاعرة خولة بنت ربيعة ، ومحاولة إرهابها ، لكي تصمت عن قول قصائدها الحاقدة على مملكة كندة .

قال عروة : هل تريد أن نرفع أجور أصحاب الولاء والعاملين معنا .

قال الملك : لا داعي لذلك فهذا واجبهم .

قال عروة : وجب يا مولاي .

قال الملك : ينفجر فقيرا أفضل من أن ينفجر غنيا يا أبا جهل .

قال عروة وهو يبتسم ابتسامة منافق : هذه حكمةٌ رعتكم الآلهة .

من تلك اللحظة الفاسدة ، بدأ عروة ، شقيق الملك وراعي شؤون كندة ، يأخذ من بيت المال بلا حساب ، يشتري لحظائره

الأملاك والإبل والخيول ، ويصرف على سهراته ونزواته ونسائه بلا حسيب أو رقيب ، وصار الناس يسمونه الحرامي عروة ، وحين شعر بأن الناس بدأت تكرهه ، وظف العشرات من الأولاد الضائعين في حواري مملكة كندة لحمايته وحماية قصوره ، فكان يخرج من داره مخمورا يدور على المضارب والبيوت ويقتحمها باسم ديوان التطوع ، ليعرف كل ما يدور في مملكة كندة ، وهذا ما أساء لسمعة الملك .

(٤)

خولة بنت ربيعة بنت جميلة من بنات كندة الملوك في جاهلية نجد ، وفتنتها ليس في وجهها البريء وليس في جسدها الرائع ، لكنه يكمن في روحها الخفيفة والمرحة ، روح تحب كل الناس ، وفي حضورها حكايات جميلة ومتعة وبساطة وأدب ، وقد عملت على مساعدة الفقراء في كل أنحاء مملكة كندة في نجد ، وخولة لا تخجل في الحق ولا تخجل أن تأخذ من الأغنياء من أجل أن تطعم الفقراء ، أو تشتري لأسرة فقيرة خيمة أو مأوى .

قالت الشعر في بداية حياتها ، لكن بعد أن أخذها العمل الإنساني تركت الشعر لأهله كما تقول ، وتفرغت لما تشعر أنه عملها الحقيقي ، في وقت كان قطع الطريق والغزو والسرقة من عادات كثير من رجال كندة الجاهلية ، والدها ربيعة بن معد من أفضل رجال كندة في البناء والعمارة ، ولهذا وظفه الملك مسئولا عن بناء السدود الصغيرة أو الجدران الحجرية لمنع تدفق

السيول على المزارع ، لكنه لم يستطع إكمال عمله بسبب تدخلات شقيق الملك ، الحرامي عروة بن عمرو في عمله ، ونهبه للأموال المخصصة لمشاريع كندة ، وابقاءه على القليل منها الذي لا يكفي لإكمال المشاريع .

كان عروة بن عمرو ، شقيق الملك الجاهلي ، يتدخل في مشاريع السدود فيوقفها أو يمنع عنها المال اللازم لإكمالها ، وكان يستولي على هذه الأموال ويصرفها على ملذاته وسهراته وسفراته وخيوله ، يساعده في هذه الاختلاسات الابن الأكبر للملك واسمه معاوية ، والذي تربى على يد عمه الحرامي ، فتعلم منه قطع الطرق وسلب أموال الناس بالقوة ، حتى حين استوى والده ملكا على كندة ، توقفوا عن قطع الطرق وبدأوا بشكل منظم في نهب أموال كندة من خلال المشاريع الوهمية ، في حين كان الملك غارقا في شربه وملذاته وهمومه وحروبه الصغيرة والكبيرة .

اشتهر مجلس خولة بنت ربيعة كثيرا ، وصار الزوار يأتونه من كل بقاع كندة الملوك ، وهي أخذت ركنا من أركان ساحة كندة الواسعة ، بدأ المجلس ببعض أقارب وجيران خولة بنت ربيعة ، ثم تحول إلى مايشبه ساحة حكايات وشعر ، وحوارات كبيرة أرعبت الملك ، لم تكن خولة تختلق الحكايات ، لكنها كانت تسرد حكايات الجاهلية من الواقع ، بروح بسيطة وجميلة ، وكانت تحكي لهم كيف أنه من الممكن أن انفعالا

طائشا على حادثة عابرة ، يمكن أن يقود إلى سفك مجاني للدماء ، وأعطت أمثلة بحرب البسوس ، ومقتل ملك العرب المتسلط عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم . وقد استمر مجلسها منارة للثقافة والحكمة سنوات طويلة .

(٥)

نشأ حجر بن الحارث ، الابن الأصغر للملك الجاهلي النجدي الحارث بن عمرو ، في كنف مملكة كندة ، وكانت والدته سهيلة بنت ماء السماء ترسله دائما إلى مضارب أهلها ، فتعلم مع أخواله الصيد والفروسية ، ودرس حتى تعلم القراءة والكتابة ، وقرأ تاريخ نجد في الجاهلية ، والممالك المجاورة ، كما قرأ عن الفرس والروم وغيرهم من الأقوام المحيطة بمملكتهم وسط جزيرة العرب ، وكان يعود أشهر الصيف إلى ديار والده ، يعيش وسط عامة الناس ويعلم أولادهم القراءة والكتابة والفروسية ، وكان محبوبا من جميع الناس ، لكن والده لم يعجبه هذا الحال المائل لابنه .

من هنا بدأ يسأل ابنه حين كبر : هل أنت معنا أو معهم ، وكان ابنه يسأله من تقصد يا أبي ، فيقول له الملك الكندي : هل أنت مع الملك أم مع الشعب ، قال الولد : إن الشعب والحكومة شيء واحد ، لكن الملك رفض ذلك ، وأخبره عن

كثير من القصائد التي تهجو الملك وأهله وحكمه ، فيسأله ابنه لماذا لا نجلس معهم ونعرف مطالبهم ، فيرد الملك أنه يرفض الجلوس مع حثالة الشعراء والشاعرات من سفلة القوم . أحيانا يطول الحوار بينهما ، وأحيانا ينتهي بخلافات عميقة ، فيهرب الولد من بيت والده غاضبا أو حزينا .

وفي أحد الحوارات أو الجدالات العنيفة التي ثارت بين الأب وابنه ، وكانت سببا في القطيعة بين الاثنين ، حين طالب الأهالي ببناء موانع حجرية أو سد يمنع عن مزارعهم وبيوتهم سطوة السيول القوية التي تدهمهم في بعض الليالي السوداء ، وهنا أمر الملك بيت المال بمبلغ ضخم لبناء السد ، وعهد لربيعة بن معد والد الشاعرة خولة الإشراف على بناء السد لأنه من أفضل المعماريين في ذلك الوقت ، فتسلم المشروع لكنه لم يتسلم المال ، وظل يطالب بمال المشروع اشهراً طويلة حتى استلمه ناقصا ، حيث تدخل شقيق الملك عروة وتقاسم نصف المبلغ مع معاوية ابن الملك ، كعادتهم في القبض على نصف مبلغ كل مشروع ، وبقي نصف المبلغ الذي بنى سدا صغيرا لم يمنع السيل من إغراق مزارعهم وبيوتهم مرة أخرى ، فثاروا مرة أخرى ولم يقابلهم سوى بالمطاردة والسجن ، ومن أجل إسكات الناس أدخلوا والد خولة في السجن دون قضية واضحة ودون محاكمة ، إذ اتهموه باطلا ، بأنه سبب مأساة السد .

(٦)

في ذلك الصباح النجدي الجاهلي المبكر ، ذلك الصباح الشاعري العالي ، وفي تلك اللحظة التاريخية الدقيقة من حياة الأمة الكِندية ، عطس الملك الجاهلي النجدي الكِندي ، الحارث بن عمرو ، تسع عشرة عطسة ، وحين توقفت هذه النوبة المفاجئة التي دوخت رأسه الدائخ أصلا ، اكتشف أن ظهره يؤلمه ، وكذلك ساقيه ، مع مغص يأتي ويروح في بطنه ، كما أن عينيه السوداوين الصغيرتين ، اللتين تشبهان حبتي زيتون صغيرتين ، واللتين لا تليقان بعيني ملك ، كانتا زائغتين ، فأصابه هلع كبير ، وشعر أن ملائكة الموت يقفون الآن عند الباب الخارجي لداره ، ينتظرون الأوامر للقبض على روحه ، ارتعب المسكين وركض إلى زوجته سهيلة بنت ماء السماء ، فهذا السمين القصير لايركض إليها إلا في أوقات الشدائد .

ركض إليها يتدحرج مثل حبة شمام فاسدة ، استلقى على ظهره في خدرها وشكا لها أوجاعه ، فأسقته فورا ماء الكمون ،

وقالت له إن مرضك من هواء المطر البارد ربما دخل معدتك ، حين كنت تشرب في الهواء الطلق ، أو من ذلك الجدي الملعون الذي أكلته لوحدك بكامل تفاصيله ليلة البارحة .

غطته باللحاف حتى يرتاح ، لكنه أبعد الغطاء عن وجهه بهلع ، خشية أن يرى أطياف ملائكة الموت ، الذين لازالت صورهم تروح وتجيء في رأسه المصدوع ، نهض بتثاقل وهو يشعر بدوار عظيم ، وفي هذه اللحظة فكر أن يشرب دورقا كبيرا معتقا ، فارتكب هذا الفعل فورا ، فعاد لرأسه بعض توازنه المفقود ، ورأى أن يجتمع برجاله .

أخبر سهيلة بذلك القرار ، وطلب منها جمع الرجال في الديوان ، دخل الحمام ، استحم بدهن العود ولبس الحرير ، ثم خرج مرتاحا ، لتزفه حرمه المصون مرهقا إلى الديوان ، فجلس الوالي المدور ، على كرسيه المزين بالذهب والدمقس والزفير مثل ديك مريض .

جلس الوالي على كرسيه في حال قلق .

التقط أنفاسه بصعوبة .

ثم قال لرجاله بصوت جديد كأنه ليس له .

صوت مليء بالطمأنينة وفيه شاعرية مصطنعة ممزوجة بكحة مفتعلة : أيها الإخوة الكرام أيها المعاونون يا حرس مملكة كندة ، إن حال نجد لايسرني وهي بآلهة متعددة ، وأنا أريد إلهاً واحدا يجمعنا قبل أن أتقاعد أو يخطفني الموت .

صمت قليلا ثم خفض رأسه لكي يمنح للمشهد بعدا دراميا متوترا ، وصورة ملائكة الموت لازالت ترن في رأسه بعمق ، رفع رأسه بعد لحظة صمت ، ثم واصل بحزن واضح التمثيل والادعاء : إنني أفكر بجمع الشعب لأخذ رأيه ومقترحاته لكي نختار إلهاً واحدا لنا جميعا ، بدلا من حال الشتات التي لا تسر في مملكتنا الحبيبة .

ثم واصل بخشوع زائف : أطلب منكم أن تجمعوا أهل كِندة ، النساء قبل الرجال ، فمملكة كِندة تقدر نساءها الشاعرات الرائعات ، وتدعوهن أيضا لحضور اجتماعنا لأخذ رأيهن في هذا الموضوع المهم .

هنا طلب الحديث أحد الأعوان ويدعى حنيفة بن زبيبة وقال : ولكن يا سيدي لماذا لا يكون لكل مواطن إله . .

وأكمل المسكين فرحا بمقترحه : لماذا لايكون لكل مواطن حريته في اختيار الإله . . فقد تكون المسألة أذواقاً ياسيدي العظيم .

رد عليه الوالي بسرعة مفتعلا الغضب : الأذواق ليست في الآلهة يا حمار . . . هذا كفر صريح أيها الزنديق .

وأضاف الوالي بما يظنه قدرته على الكلام المقنع : الأذواق حين تختار بين أنواع الفاكهة أو القصائد أو الخمور أو الجواري أو الغلمان ، لكن في موضوع الإله ، يجب أن يكون إله كِندة في مملكة نجد العظيمة واحدا ، هل فهمت يا ابن زبيبة .

قال حنيفة وقد بدت على وجهه علامة عدم الرضا : فهمت يامولاي . وقال بصوت منخفض : نحن بحاجة إلى ملك جديد وليس إلى إله جديد .

لكن الوالي واصل يخاطبه : أنت فهمت يا حنيفة لكن شقيقك الهارب كليب لا يفهم . . ولازال هاربا يقطع الطرق ويسرق حلال الناس . أليس كذلك ؟

قال حنيفة : وابنك أيضا ، معاوية ، يا مولاي ، يقطع الطرق ويسرق لكنه لم يهرب لأن حراسك يحمونه .

قال الوالي بعد أن احمر وجهه غضبا وإحراجا : كف عن هذا الهراء يا ابن زبيبة . . ولا تصدق كلام المتمردة والمتشاعرة خولة بنت ربيعة التي تريد بقصائدها اشاعة الفتنة بين الناس والملك .

أجابه حنيفة بغضب مكتوم : لا دخل لخولة في ما أقول .

قال الوالي : اصمت فلدينا ما هو أهم من شقيقك المنحل كليب .

ثم عاد الوالي إلى صوته الجديد . . ذلك الصوت الذي فيه ما يشبه البكاء أو الخشوع أو الترتيل أو الموسيقى . . فصاح بهدوء : يا أمة نجد الكِندية ، إنه من باب حبي لك ومن باب الديمقراطية التي أعتنقها ، أطلب اجتماع أعيان الأمة النجدية لاقتراح إله واحد كبير ، يكون لنا عونا في الشدائد .

امتلأ الجو بالخشوع والصمت ، كسره بكل غباء كعب بن

ثعلب ، وهو أحد الأعوان الصغار بصوته المبحوح الذي جاء من الخلف ، حين سأل الوالي : لكن ما معنى ديمقراطية يا مولاي العظيم؟

ظل الوالي صامتا للحظة ، ربما لكي يبدو منزعجا من هذه المقاطعة السخيفة ، لم يرفع رأسه لكنه فقط رفع عينيه الصغيرتين ، تلفت بهما يبحث عن مصدر الصوت وهو ينادي : يا صاحب السؤال أين أنت .

وحين قبض عليه بعينيه السادرتين اللتين كما قلنا تشبهان زيتونتين صغيرتين شديدتي السواد .

قال له : مشكلتك يا ابن الثعلب أنك تسأل مثل هذه الأسئلة في أوقات غير مناسبة ، في أوقات دقيقة وعصيبة من حياة الأمة ، حيث كما تعرف أننا نبحث قضية خطيرة لها علاقة بمستقبل مملكة كِندة الديني ، وأنت بكل غباء تسأل سؤالا يعرف إجابته أصغر شاعر في كِندة .

ثم سأله الوالي بغضب : ألست أنت أيها الصعلوك المتشاعر والمبحوح المنحل والعميل المزدوج ، من يسهر في دار الشاعرة خولة بنت ربيعة ، ومعكم بقية المنحلين أمثال امرؤ القيس وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى ، أليس كذلك أيها المنحل .

ثم واصل الوالي بحدة : حين تقطع قدميك عن دارها سوف نغض الطرف عن قصائدك المسروقة أيها الثعلب الماكر

والمريض ، وسنجعلك تقرأ سخافاتك على دكة الشعراء المشهورة ، لكن في ما لو عرفت أنك تزورها في دارها ، أقسم بناقتي الجميلة أن أعلقك من قدميك في أطول أشجار كندة ، وأفضح قصائدك المشبوهة .

وأكمل الوالي : ثم قل لي أيها الثعلب ، أريد أن أعرف هل أنت معنا أم معهم أيها الصعلوك؟

قال المبحوح محرجا : معكم ياسيدي ، وناقتي الحزينة لم أحضر مجلس بنت ربيعة منذ زمن طويل ، يا مولانا العظيم ، ولن أحضره أبدا .

في هذه اللحظة تدخل الغاضب حنيفة بن زبيبة مرة أخرى قائلا للوالي : ماذا بها خولة بنت ربيعة يامولاي ، إنها تكتب قصائد ضد الحروب وضد الفساد وضد المتسلطين على شعب كِندة .

على الفور صرخ فيه الوالي : أنت أيضا مرة أخرى تعارض كلامي يا ابن زبيبة . . تدافع عن هذه المعتوهة في مجلسي ، بدلا من أن تبحث عن شقيقك الهارب وتحضره للعدالة .

قال حنيفة : أخي كليب يقطع الطرق على اللصوص والحرامية الذين تعرفونهم حق المعرفة .

فصرخ الملك : أخرجوه من مجلسي ، أخرجوا هذا الفاسد الكاذب السافل ، نهض الحارس ليخرجه ، لكن حنيفة بن زبيبة كان قد سبقه إلى خارج المجلس .

تنفس الوالي بعمق ثم أخذ رشفة من دورقه الكبير ، وقال للرجل المبحوح ، وهو على وشك الابتسام ربما ليلطف الجو : أسمع يا أباجهل المبحوح ، نعود لسؤالك أيها الثعلب المريض ، فكلمة ديمقراطية تعني حكم الشعب ، ولا أريد بعد ذلك أن اسمع صوتك الصغير هذا ، ثم ترفق بنفسك ولا تشرب كثيرا في الهواء الطلق حتى يعود لك صوتك أيها المنحل .

وهنا ضج المكان بضحك واضح الافتعال من الجميع ، بمن فيهم سهيلة زوجة الملك الجاهلي ، فعاد جو المجلس لطبيعته بعد تلك المشادات وبعد تمثيلة البكاء .

هدأ المكان ، فوجه الوالي كلامه لرئيس معاونيه : الملاحظ أن الحمير بدأ عددهم يزداد في مجلس الأعوان ، وبدأت أسئلتهم الجاهلة تفوح ، ابحث لنا عن رجال أفذاذ لمجلس المعاونين .

قال خادمه عروة على الفور : حاضر سيدي .

قال الملك الجاهلي : أخبروا جميع الأعيان من التجار والشعراء والشاعرات أن الاجتماع هنا في داري عصر الغد ، ثم وقف الوالي متأرجحا وكاد يسقط ، فأمسكت به سهيلة بنت ماء السماء ، ابتسم لها بوجه أحمر يداري خجلة ، نهض الجميع ، مشى الوالي تصحبه حرمه إلى منتجعه المثمر والظليل خلف الدار ، لكنه توقف فجأة ، التفت إلى أعوانه وهو يتأرجح مثل ضوء يهتز ، وتحدث بصوت متلعثم يتصنع القوة والعظمة

مع الإيماء بسبابته عاليا ، وقال : يوم الغد اجتماع تاريخي في حياة الأمة ، أدعو الجميع للحضور ، حتى الفقراء والفاسقين والسفلة والمجانين وسوف يرأسه شقيقي عروة بن عمرو .

ثم مضى يتدحرج مستندا إلى زوجته .

هنا أظلم مسرح الجاهلية لكن الستارة لم تتحرك . .

ظلت الصورة الشاعرية لمؤخرة الملك الجاهلي القصير والسمين ، وهي تتدحرج ذاهبة إلى ملاذها ، ومعها صورة رجاله وهم يودعونه وقوفا ، في انتظار اختفاء طيفه الكريم ، لكي يتفرقوا .

لكن الملك وهو يغادر كان يحدث نفسه بصوت شبه مسموع ، كان يتمتم :

لن أموت لازال الوقت مبكرا ، وهؤلاء الملائكة الذين يربضون عند باب داري ، سوف ينتظرون طويلا ، هذه مشكلتهم وليست مشكلتي .

كانت الجدران ، وجبال كندة ، تردد صدى صوته البائس والحزين ، حتى اختفى عن الأنظار .

(٧)

في صباح اليوم التالي كان الشاعر المغمور كعب بن ثعلب على وشك النوم تحت شجرة في وسط الميدان العام بمملكة كندة ، عند محل الشواء المعروف بارتياد أكابر القوم له ، وكان بجواره خاله الشيخ النعمان ، يحكي له حكايات كندة القديمة ، وكان في تلك اللحظة يحكي له عن ملك قديم ، من ملوك كندة بنجد ، وحين حدثت مجاعة في البلد ، هجم الفقراء الجائعون على قصره ، قفزوا أسواره وقتلوا الحرس ، وكان الملك في تلك اللحظة ، يسبح في بركة وسط الحقول مع بعض أصدقائه ، فدخل المواطنون عليه وبدأوا في أكل كل ما يواجههم ، فصعد الملك ورفاقه إلى رأس شجرة تظلل البركة ، وحين شبع المواطنون الفقراء اجتمعوا حول الشجرة يطلبون من الملك ورفاقه النزول .

لكن الملك الجاهلي خطب فيهم بصوت عال لكن يرتعد خوفا قائلا : أيها الإخوة الفقراء كونوا مؤدبين .

وقبل أن يتم خطابه رماه أحدهم بسهم ، فسقط في بركته ، ثم أطاحوا برفاقه .

وحين أنهى خاله الحكاية لمح من القرب ، مساعد الملك عروة بن ربيعة ، واقفا أمام محل الشواء ، وهنا قفز بن ثعلب من مكانه ، كأن عقربا لدغته ، إذ وجد هذا الشاعر المغمور أن الفرصة جاءته ، فحاول استغلالها ، لكي يبوح لرجل الوالي الأول بهمومه ، لكن بطريقة تثبت شاعريته المسكينة .

توجه إليه وألقى السلام على مساعد الوالي ثم أنشد :

أيا أعيان كندة لماذا تطاردون شخصي الكريم في كل مكان ، وترفضون حضوري لمجلس الأعيان؟

وهنا رماه عروة بنظرة غضب .

ثم قال له : تحدث يا ابن تماضر على مقاسك واترك الشعر لأهله فنحن نعرف أن أشعارك مأخوذة من هنا وهناك .

ثم سأله بحدة : ماذا تريد في هذا الصباح .

قال كعب وقد احمر وجهه خجلا : ياسيدي أطلب منك أن تستأذن الملك المفدى وسيد كندة الحارث بن عمرو أن يسمح لي بحضور مجلسكم العظيم عصر يوم المؤنس .

قال عروة : أنت تعرف أن هذه الندوة الأسبوعية تقام لأعيان كندة ، وليس للفقراء والسفلة والمجانين .

قال كعب : أنا من الأعيان يا حمتك الآلهة ، هل نسيت أن والدي (ثعلب) هو من علم الملك الجليل القراءة والكتابة وأنواع العلوم الأخرى .

وأضاف في نشوة : وتعرف أنني أبيع وأشتري في الإبل

والأغنام كما أنني أنشد الشعر؟

سأله عروة : كم لديك من الحلال با ابن ثعلب؟

قال كعب : عندي عشرون رأسا من الغنم وعشرة رؤوس من الإبل .

سأله عروة : هل تسمي هذا حلالا؟

وأضاف : إن أقل رجل أو امرأة يحضر مجلس الوالي لديه حلال لا يقل عن مئة رأس .

فقال الشاعر المغمور : وعندي أيضا قصيدة في مديح فروسية الملك العظيم ، كما أنني أحفظ قصائد الشاعر الأعشى التي يحبها الملك .

هنا فاجأه مساعد الوالي : لكن ما هي علاقتك بخولة بنت ربيعة؟

وعلى الفور أدرك كعب مغزى السؤال ، خصوصا أن الشاعرة خولة هي قريبة هذا المساعد وقد حاول استمالتها أو الزواج منها فرفضت .

ارتفعت روح كعب ، بسبب شعور صغير بالانتصار ، على هذا المتسلط الماثل أمامه ، فقال بصوت منتش : ننشد الشعر في بيتها كل يوم عروبة ، وفي بعض الأماسي يحضر امرؤ القيس والمهلهل وطرفة بن العبد وعنترة ، فنقيم حفلات شواء وشعر وغناء ورقص .

قال عروة : إذا تركت سهراتك وفسوقك وتركت هذه المرأة